عين المدينة

مجلة نصف شهرية مستقلة / العدد 116 / 1 أيار 2018

نزلة الرديسات / حي الجبيلة / دير الزور
خاص عين المدينة

Ayn-almadina.com
facebook.com/3aynAlmadina

«هارميغدون» دير الزور القادمة وقيامة المفارقات المتضاربة

لاتكاد دير الزور تلتقط أنفاسها من حرب حتى تدخل سريعاً في أخرى، إذ يبدو ألّا حرب ناجزة في هذه الجغرافيا منذ سبع سنوات، نظراً لطبيعة الأهداف المتآكلة والمتبدلة سريعاً لأطراف القتال.

ومع أنّ المفارقة التي صحا عليها سكان المحافظة الشاسعة، وهي أنهم يعيشون في منطقة استراتيجية، ماتزال تعمل على تقليب مظاهر النفوذ الميداني، خصوصاً بعد أنْ اجتاحها تنظيم داعش في عام 2014، وبعد أن بات الحديث علنياً وصارخاً عن الممر البرّي الإيراني إلى البحر المتوسط؛ وهو الاسم المزيف لمشروع هيمنة طائفي يعتمد على ربط أفرع الحرس الثوري الإيراني الإرهابية في العراق وسوريا ولبنان بالمركز، عبر خط تموين وإمداد عسكري آمن تمثّل دير الزور عقدة رئيسية فيه، فإنّ هذه المفارقة التي كانت متوارية تماماً إبّان سيطرة الجيش الحر على غالبية المحافظة، تُقدّم تفسيراً لقصر النظر الاستراتيجي الذي تحكّم بمصير المحافظة والمدينة لسنوات طويلة من الحصارات والمذابح والخذلان، الذي قاد إلى الوضع الراهن بتعقيده وسيولته المفرطة.

ثمة مفارقة أخرى تضاف الآن إلى هذا الواقع المربك، وهي أنّ قطع الممر الإرهابي إيّاه سيؤدي حتماً إلى نشوب مواجهة عسكرية، ستكون «إسرائيل» أحد أطرافها بل وربما اللاعب الرئيسي فيها، وسيكون لدير الزور موقع «استراتيجي» أيضاً في هذه الفوضى الدامية.

على الارض مازال لداعش حضور تهديدي واضح على جانبي الفرات، وهي تحاول إعادة السيطرة على مساحات أخرى بالفعل، وإن كانت قواها الخائرة لا تؤهلها إلّا لأعمال الكرّ والفرّ. وفيما تلوح استعدادات واضحة من التحالف الدولي لاستئناف المعركة ضد داعش، فإنّ معسكر النظام وحلفائه الإيرانيون والروس يبدون منشغلين باقتطاع ما يمكن اقتطاعه من مناطق سيطرة «قسد»، لفرض واقع جيوستراتيجي جديد يُعقّد مهمة الغرب في قطع ممر الهيمنة.

الواقع أنّه في عمق هذه المفارقة وتلك فإنّ بعداً دينياً - طائفياً يتربص بما يُطلق عليها الاستراتيجيا، فالممر الإرهابي هو في جوهره «تكليف شرعي قيامي» يستهدف التأسيس لمعركة نهاية التاريخ حول دمشق، وهذا لا يُنتج سوى مفارقة مقابلة تُحيل «إسرائيل» والغرب إلى مايشبه نسخة مُصغرة من «هارميغدون» ضد إيران وداعش، وهي عندهم معركة لنهاية التاريخ، لكنّه في دير الزور قد يكون مجرد يوم معركة تكتب بداية تاريخ قلق آخر.

3 بعد التدمير.. خطر آخر قد يمحو التراث المعماري في مدينة دير الزور
6 الضمير الثقافي يترجّل.. وداعاً عبد الغفور الشعيب
7 بحثاً عن مجد ضائع، محمد خير ذياب الماشي مثالاً في منبج
8 يوم كان "الطرانس الشمالي" قضيتنا المركزية
11 مسروقات الغوطة تحرك أسواق جرمانا بريف دمشق
13 الولاء شرط البقاء في دولة الأسد
16 - 17 تحولات الحيوان.. حكاية لجدران الحكم المتداعية
19 علي حيدر.. اللواء البار بضيعته والضيع المجاورة

بعد التدمير..
خطر آخر قد يمحو التراث المعماريّ في مدينة دير الزور

م. علي فواز

منذ صيف العام 2012وحتى خريف العام 2017، تعرّضت الأبنية والمواقع التراثية في مدينة دير الزور لتدمير هائل، ألحقته بها أشكال القصف المختلفة بالطائرات والمدفعية الثقيلة والصواريخ والدبابات. تلك ليست الجريمة الأولى لنظام البعث بحق تاريخ دير الزور وهويّتها العمرانية، بل سبقتها جريمة أفظع في العام 1968، وهي إزالة «الدير العتيق» من الخارطة بتجريف البلدة القديمة كاملة وإنشاء أبنية بيتونية قبيحة مكانها.

جانب من السوق القديم في مدينة دير الزور، التقطت الصورة من مئذنة الجامع العمري في العام ٢٠١٠ - بعدسة الكاتب

مبنى السرايا القديم الذي شيّده العثمانيون في العام 1877 كأول مظهر من مظاهر اهتمامهم السياسي بدير الزور، وكتعبير عن عزمهم تحويل البلدة إلى مدينة، قبل أن تصبح واحدة من ثلاث متصرفيات ممتازة إلى جانب القدس وجبل لبنان، دُمّر تدميراً كاملاً وسُوّيت حجارته بالأرض. وكذلك حال البوابة العثمانية (شُيدت: 1889) التي تفصله عن سوق التجار التراثي الذي دُمّرت بعض أجزائه بالكامل. سوق الخشابين المُنشأ في التاريخ ذاته سُويّ بالأرض كذلك، وصار أثراً بعد عين. الأسواق «المقبية» الأخرى، والمآذن والقباب في جوامع السرايا والعمري والتكيتين دُمّرت بنسب مختلفة، أوتخلخل استقرارها الإنشائي بما يُعرّضها لانهيار في أي لحظة. خان الصبّاغ (المملوك لعائلة كنامة)، مطعم القاهرة الشتوي، كنيسة اللاتين (الكبوشية)، والعديد من الأبنية التراثية غيرها، تعرّضت كذلك لنسب تدمير بين (60-90) %، وكثير من المنازل السكنية المُشيّدة في أواخر العهد العثماني وحتى أول عهد الانتداب الفرنسي، التي تُعدّ الأمثلة الباقية عن عمارة البيوت التراثية في مدينة دير الزور، دُمّرت تدميراً كاملاً وصارت أكوام حجارة متشظية.

حتى الآن لم يصدر تقرير علمي يُوثّق الحالة الراهنة للمباني الأثرية والتراثية، ويرصد حجم الأضرار التي تعرضت لها. ويصعب على جهات أكاديمية أو منظمات دولية تُعنى بالحفاظ على التراث الثقافي المادي، ولاسيما في مرحلة ما بعد الحروب، إصدار هكذا تقرير، طالما ظلّت المدينة أسيرة السيطرة الأمنية العسكرية للنظام على المدينة. ولا يُنتظر منه وهو الطرف المسؤول عن هذه الجريمة أن يسمح لأحد بتوثيقها، ولا يُنتظر بطبيعة الحال من مديرية آثاره، التي تعاني من قصور مزمن مُتعدد الأوجه، أن تفعل هذا وهي المُتّهمة ومن قبل الثورة بالتقصير والعبث بتراث دير الزور وآثارها.

أبنية وصروح ومعالم تاريخية كثيرة في بلدان مختلفة دمّرتها الحروب وأُعيد إعمارها ثانية كما كانت قبل التدمير، لا أمل بذلك تحت سلطة الأسد في دير الزور وغيرها من المدن السورية التي نالت نصيبها هي الأخرى من همجيته، وكل ما يُمكن فعله اليوم هو توثيق التراث المعماري للمدينة، وفق الشروط العلمية وبالأساليب المعروفة للمختصين في هذا الشأن. لكنْ وإلى جانب العوائق التي تفرضها سيطرة النظام على دير الزور، تبرز عوائق أخرى في مشروع التوثيق المعماري، أهمها بلا شك افتقار كثير من المباني والمعالم التراثية لمخططات معمارية أصلية، بما فيها تلك المُسجّلة لدى مديرية الآثار، حيث كانت المديرية تكتفي بتسجيل المبنى ضمن قائمة المباني الأثرية دون أن ترفع المُخططات المعمارية المطلوبة؛ في هذه الحالة يمكن الرجوع إلى مخططات المساحة المشغولة في عهد الانتداب الفرنسي (الكاداستر)، وهي لا تفيد إلا بإبراز المساقط الأفقية من دون المساقط الأخرى وباقي التفاصيل المعمارية اللازمة للترميم، أو إعادة تشييد المبنى كما كان في السابق. فضلاً عن أهميته الجمالية، يُمثّل التراث الثقافي المادي المُتجسّد بالعمارة والعمران القديم للمدن قيمة حضارية، وإرثاً حيّاً وفاعلاً في جوانب اجتماعية وسياسية وأخلاقية من حياة الشعوب. وإن تدمير هذا الإرث قصداً وعمداً من قبل قوات الأسد، ودون ضرورة أو أهداف أو منافع عسكرية فرضتها مجريات المعارك في معظم الحالات، يُعبّر بوضوح شديد عن استهتاره بتاريخ مدينة دير الزور، ويُؤكد رغبته بمحو شخصيتها وذاكرتها الحضارية ثأراً منها على انتفاضتها ضده، وعقاباً دائماً يُريده النظام رادعاً للأجيال اللاحقة، في سلوك عقابي وحشي اعتادت عليه المدن السورية منذ ثمانينات القرن الماضي.

بلا شك، سينشط في الأشهر القادمة تُجار الحرب والمُقاولون المحلّيون المرتبطون بالنظام للفوز -محاصصة مع ضباط مخابرات ومتنفذين آخرين- بعقود وعطاءات من «كعكة إعادة الإعمار»، وتأتي أعمال التجريف ورفع الرّكام العشوائية القائمة اليوم في مدينة دير الزور مُمهدة لهذه الأنشطة، كما تُمهد لها على نحو آخر مراسيم الأسد الأخيرة.

البصيرة تقف على قدميها لوحدها

و(قوات سوريا الديمقراطية) لم تُقدّم لأهلها سوى الحواجز الشكلية

محمد أبو سعيد

تحظر (قوات سوريا الديمقراطية) "قسد" افتتاح صالات الاتصال عبر الأنترنت في مدينة البصيرة (45 كم شرق دير الزور) بحجة أن المدينة تقع في منطقة عسكرية، لكن ذلك لم يمنع القوات، عبر مجلس ديرالزور المدني التابع لها، من فرض جباية على بعض الخدمات العامة التي توفرت جزئياً بالاعتماد على جهود السكان، ودون أي دور هام للمجلس في توفيرها.

متداولة على الإنترنت

يتواصل أهالي البصيرة مع أقاربهم وأصدقائهم في المناطق البعيدة عبر ما يتاح لهم من تغطية شركتي Syria tel و mtn العاملتين في مناطق سيطرة النظام في الضفة اليمنى لنهر الفرات، وباستخدام السيرفرات الرائجة مؤخراً، بينما يلجأ بعض المحظوظين إلى مقهى سري للأنترنت يقع في حارة فرعية، ولا يستقبل إلا الزبائن المقربين من صاحبها، لذلك تعيش البلدة في عزلة شبيهة بالعزلة التي كانت تعيش فيها عندما كانت تحت سيطرة تنظيم "الدولة الإسلامية"، يُكرّس هذه العزلة توقف شبكة الاتصال الأرضي، نتيجة الخراب الذي لحق بمقسم الهاتف بسبب أعمال السرقة والنهب والتخريب التي طالت المقسم، الذي تحوّل إلى مقر لشرطة "قسد" العسكرية.

ليس انقطاع الاتصالات أو تردّيها هي المشكلة الوحيدة التي يُعاني منها سكان البصيرة، بل ينسحب التردّي على خدمات مياه الشرب والكهرباء، حيث يبذل الأهالي جهوداً كبيرة لتأمين ما يمكن من المياه الصالحة للشرب، عبر وسائل شبه بدائية، فتصل المياه البلدة عن طريق الصهاريج، أو عبر (مضخة الصبحة) على نهر الفرات ثلاث مرات في الأسبوع، وهي الخدمة العمومية الوحيدة التي يفيد منها أهالي المنطقة تحت سيطرة قسد، على أن (بلدية الشعب في البصيرة) التابعة لـ (مجلس ديرالزور المدني) التابع بدوره لقوات قسد لم تترك الأمر يمر دون أن تضع بصمتها، حتى لو كانت البصمة مجرد جباية فواتير المياه.

في حين تمدّ البلدة بالكهرباء في الفترة الأخيرة خمس مولدات خاصة، لثمان ساعات في اليوم، بسعر 2500 ليرة سورية للأمبير، ويعمل فيها ثلاثة أفران آلية خاصة، وتعتمد نظافة الشوارع على المبادرات الأهلية حين يجمع أصحاب المحلات أو البيوت المتجاورة القمامة ويُحرقونها، باستثناء ذلك تعيش البلدة دون جمع القمامة من شوارعها وحواريها.

يملأ النازحون مدارس البلدة ودُروها الخالية، وتنصّب لهم الخيام بين سكانها الأساسيين الذين لم تضطرهم الحروب إلى النزوح الجماعي، كما في مدن وبلدات أخرى، وتقفز كتلة النازحين العديدة بسكان البصيرة إلى أكثر من مئة ألف، أي قرابة ثلاثة أضعاف عدد سكانها الأصلي، كما يُقدّر مهتمون منها، ما أعطى سوقها زخماً في افتتاح محلات الجملة والمفرق والخدمات والمطاعم، مع المكانة التي نالها السوق منذ سنة ونصف، بعد استهداف طيران التحالف جسر الميادين وبالتالي عزل سوق المدينة المركزي، حينها صار سوق البلدة مقصد الريف المحيط بها، ويشمل جديد عكيدات والبكارة والصبحة والطابية وبريهة والحجنة ودحلة والتوامية والحريجي والزر وشحيل، ويضاف إلى السوق وجود مشفى الحياة للتوليد وكراج للانطلاق نحو الحسكة تفتقر إليهما المنطقة برمتها، شرق ديرالزور على الضفة اليسرى لنهر الفرات.

تنتشر في البصيرة حواجز لفصائل وتشكيلات تدور في فلك قوات سوريا الديمقراطية، ويعمل كل من تلك الفصائل على جانب معين عبر الحواجز، لكنها لم تُفلح في بسط الأمان في المنطقة، فتُلاحق الشرطة العسكرية مخالفات وهروب المتطوعين من أبناء البلدة في قوات (مجلس ديرالزور العسكري)، قبل أن ينسحب المجلس من البلدة، وتُلاحق كذلك المتطوعين في قوات (الدفاع الذاتي) التي تتخذ من الثانوية الصناعية مقراً لها، ويرى البعض أن الدافع وراء انضمام أبناء البصيرة إلى التشكيلين كان النجاة من الخدمة الإلزامية التي تفرضها قسد في أوقات متفرقة.

إلى جانب القوتين تنتشر قوات (حماية المرأة) التي تشغل مبنى الناحية دون عمل واضح، في ظل مجتمع محافظ يفضل حل مشاكله مع نسائه بنفسه، وبعيداً عن سلطة يقتصر عمل قواتها وفصائلها وأجهزتها على نشر الحواجز، التي لا يأمن المرء على نفسه بعيداً عنها بـ٣٠٠ متر، حيث قد يتعرض للسلب، كما يتردد بين الأهالي، بينما لم تُخصص سلطة الأمر الواقع حتى دار قضاء لفض النزاعات، التي يتدخل الوجهاء لحلها في مضافاتهم ودواوينهم، وباستعمال الاحترام المتبادل وتوازن القوى وعلاقات النسب.

وتُساهم التركيبة الخاصة لمدينة البصيرة، بتحدّر سكانها من جذور عشائرية وعائلية متنوعة، في ترسيخ صبغة خاصة تتمتع به البلدة، التي تتميز بهدوء نسبي قياساً إلى محيطها، وتكاد تخلو من عمليات القتل المتصلة بالثأر، أو السطو بقصد السلب، حتى أن هناك (ناس تمشي بالليل) كما يفتخر الأهالي، في إشارة للأمان، الأمر الذي جعلها، إلى جانب أسباب أخرى، هدفاً للنازحين من البوكمال والميادين وريفيهما في الفترة الأخيرة، وقبلهما من مدينة ديرالزور وريفها.

مصطفى.. الطفل الذي وُلد في «بيت الأرامل»
ومضة من يوميات ديرية

■ سلام الغدير

وُلد مصطفى إذن - كان والداه قد اتفقا من قبل على اسمه - وأرسل صرخة الحياة الأولى معلناً ميلاد سوريّ جديد تحدى كل الظروف القاسية، وأصرّ أن يرى نور الحياة.

إنه أذان الفجر. رسالة بأن النهار قد بدأ. ولكنه اليوم فجرٌ مختلف. هاهي رشا جارتنا تضع مولودها الثالث في البيت، رفضت الذهاب إلى المشفى الميداني الذي يحتوي قسم التوليد لأنها مازالت في العدة الشرعية.

استشهد زوجها منذ حوالي ثلاثة أشهر بغارة جوية على الميادين. حملت طفليها ولملمت أغراضها البسيطة: طباخ الكاز الأصفر، ورثته عن حماتها التي توفيت في غرفة بمدرسة للنازحين -ذات غرفة رشا التي كانت تتقاسمها مع زوجها وطفليها وحماتها وشقيق زوجها الشاب- وبعض الأواني البلاستيكية، سكيناً حادة حرصت على إحضارها من بيتها الذي هربت منه تحت وقع اشتباكات عنيفة منتصف 2012، وبقايا أكياس الرز والعدس وعلب الفول التي كان يتم توزيعها على العوائل النازحة.

الخالة صبحية والدة رشا أم شهيد وأرملة شهيد ولكنها أقوى مما تتوقعون، كانت من دعائم الصمود المُشار لها بالبنان في الأحياء المحررة، آوت وأطعمت ومرّضت الكثير من الشبان قبل استشهاد ولدها المقاتل وبعد. ولدها شاب أعرفه منذ كنا أطفالاً، أو ربما يافعين، وأتذكر كيف غيّرت الثورة الكثير من طباعه، فبعد أن كان الفتى المدلل الذي لا يعرف المسؤولية حتى بعد الزواج والأبوة لطفلين، ظل معتمداً على أهله بالكثير من تفاصيل حياته، ثم اختلف بعد الثورة لدرجة أنك لا يمكن أن تراه إلا متفاعلاً فيها ومعها، حتى تخاله يحمل سوريا كلها على كتفيه، متظاهراً في الشارع، ثم مسلحاً ضمن كتائب الجيش الحر، وبعد هذا وذاك شهيداً.

الأب الذي آثر الالتحاق بالعمل الثوري، أو الإنساني، على حسب اختلاف توصيفاتنا ودوائر تصنيفاتنا، بما يسمح له عمره المتجاوز للستين، فكان ضمن الهيئة الشرعية، واستشهد بالقصف على تكية الراوي في رمضان 2012، لتصير الخالة صبحية أماً وجدّة بوجه قوي تُظهره للجميع، ووجهٍ مُنهك تُحاول إخفاءه إلا ببعض اللحظات، عندما كانت تسرّ لأمي بأن الحِمل ثقُل عليها وتجتهد بمساعدة زوجة ابنها بتربية طفليها. ثم تعود إليها رشا مع طفلين وثالث في أحشائها، ليصير البيت «منتجعاً للأرامل» كما كانت تسميه.

قد يبدو التعبير قاسياً ولكنها كانت تُردّده على مسامعنا وهي تضحك، لترسل لنا رسالة بأنها تمزح، ولعل تلك الضحكة كانت وسيلتها لتفريغ الضغط الذي تعانيه وهي تحمل كل هذا الكمّ من الأعباء.

هاهي الخالة صبحية تخونها قوتها اليوم، وتخنقها دموعها، وهي تستقبل مصطفى بين يديها، وتُسمعنا جميعاً كلمات تختصر الحكاية (أبچي على اليتيم اللي انحرم شوفة أبوه)، سلبت منا هذه الكلمات حتى الفرحة المزعومة بقدوم مصطفى.

الطفل مصطفى في عامه الرابع

وبعودتنا -نحن الموجودون- إلى الواقع تنبّهنا إلى أن الأسرة اليوم بلا رجال، فلا أب ولا جدّ ولا خال لمصطفى، ولا حتى أعمام، كانوا بعيدين عن «الشيخ ياسين/ حينا» حيث رشا ومولودها.

عدتُ بسرعة إلى بيتنا في الجهة المقابلة -(أمي أين غزوان؟ نحتاجه على عجل كي يؤذن بأذن المولود) أمي، التي تلبس عباءتها على عجل لتذهب معي، تردّ (نسيتِ أنو غزوان سافر إلى الميادين من يومين!). والآن نحن في مأزق. من يؤذن بأذن المولود؟

شقيقة رشا التي استقبلت مصطفى بين يديها كانت تُحاول أن تكتم دموعها عنها، حقيقة الأمر أن جميع الموجودين كانوا يحاولون تجنّب النظر إلى رشا لكي لا ترى دموعهم. بينما حاولت أنا كبح دموعي، اقتربت منها أُمازحها، فاستجابت لي وضحكت. ربما لأنها تعرف بأننا نتسول منها ضحكة، حتى وإن كنا نعلم -كما تعلم رشا- بأنها مزيفة، وما هي إلا دمعة حارة لبست زيّاً تنكرياً. أنا على يقين بأنكم كنتم ستشعرون بذات شعوري لو رأيتم رشا في تلك اللحظة.

سألتنا السؤال الذي حاولنا أن نُبعدها عن نقاشاتنا المحمومة فيه (هل أذّن أحد بأذن مصطفى؟) همست شقيقتها بأذني بعد أن ابتعدنا عن رشا (شكون يعني. نشحد أحد من الشارع؟) أفهم أنها كانت بأقصى درجة من الإحباط جعلتها تطرح عليّ مثل هذا السؤال.

وبلحظة لا واعية وجدتُني أحمل المولود بين يديّ، وأرفع الأذان بأذنه اليمنى، وأُقيم الصلاة في اليسرى، بصوت مخنوق مخلوط بمشاعر مهزوزة، غائمة غير واضحة، ربما كانت يائسة أو متفائلة، حزينة مكسورة أو قوية العزم والهمة. لا أعرف حقيقةً ولا أستطيع التوصيف. ولكن... لا يُهمّ، المُهم أن مصطفى سمع ما كان يجب أن يسمعه.

اليوم مصطفى مع والدته وشقيقيه في الشمال، أُتابع صوره التي ترسلها لي أمه باستمرار، تُذكرني بلحظة فعلت بها ما لم أتوقعه قبل ذلك، كسرت بعض القيود ليربح مصطفى، ونربح معه جميعاً روحاً جديدة تُمدّ قلوبنا المتعبة بنسغ الحياة.

الضمير الثقافي يترجل..
وداعاً عبد الغفور الشعيب

ماجد رشيد العويد

لا ريب في أنه كان من الرجال الذين يُعاش في أكنافهم، وعلى من يريد حماية نفسه من السقوط في مفاسد السياسة والاقتصاد أن يلوذ به غير مغادر له. عرفتُه يُراقب نفسه ويحاسبها على كل صغيرة وكبيرة، ولذا فإنك تجده في وجه من وجوهه أكثر ما يكون شبهاً بديوجين، لا سبيل لمباهج الدنيا إليه. ألم يقل الاسكندر: لو لم أكن الاسكندر لوددت أن أكون ديوجين؟ وربما أعجزُ عن إيفائه حقه، وأجد الكلمات تعجز بدورها عن رسمه وتدوينه، ففيه من السموّ ما لا تجده في غير الكتب التي تُعنى بشؤون أولئك المُصلحين الكبار.

إن كان من مأخذ على الرجل ففي اعتزاله الدنيا وما فيها، يُراقب الناس والأشياء من حوله فيرسم خطوطه، ويطلق على الملأ أفكاره من دون أدنى انحياز إلى هذه الجهة أو تلك.

سألته مع بداية النصف الثاني من عام 2012 عن مصير النظام فأجابني بأن هاويته قريبة وقريبة جداً. غير أن النظام استمر وخيّب أمله كما فعل مع كثير من المراقبين والمحللين. لم يتغير موقفه من الثورة وإن كان، منذ البداية، يرى أن الوقت كان مبكراً على قيامها، وأن شروط نجاحها غير متوفرة الآن، وأن النخب السياسية والثقافية لم تشتغل عليها جيداً، وأنها انشغلت في غير شؤون الثورة حتى وصل في أكثر من مرة إلى أنه لا نخبة بالمعنى الحقيقي، وأن الاشتغال على الناس لم يكن موجوداً، وأن الذي جرى أنه اشتُغل بالناس فكان الثمن فادحاً، وكنت أرى بدوري أن بعض هذا الرأي رأي مُشتغل بالثقافة لا بالسياسة.

وُلد الأستاذ عبد الغفور الشعيب عام 1944، درس الهندسة المدنية ثم تحول عنها إلى الفلسفة. حصل على ليسانس في الدراسات الفلسفية والاجتماعية من جامعة دمشق عام 1971. عمل لوقت قصير في المصرف التجاري السوري، ثم انتقل إلى العمل في المركز الثقافي بالرقة مديراً من العام 1975 إلى العام 1984، ثم أميناً للمكتبة في المركز ذاته حتى سجنه عام 1987 ثم عاد إلى العمل بالمكتبة عام 1988 بعد خروجه من السجن وحتى تقاعده سنة 2004.

خلال فترة رئاسته للمركز الثقافي قرر أن يجعل من الثقافة في مدينته النائية منارة للثقافة في سوريا، وفعلاً، أسس مكتبة تجاوز عدد عناوينها حتى خروجه على التقاعد أحسن من خمسة وأربعين ألف عنوان ما لبثت أن احترقت بقصف النظام عام 2013.

عمل على إقامة الندوة الدولية لتاريخ الرقة عام 1981 مع الراحل الدكتور عبد السلام العجيلي، وكان التعاون وثيقاً مع الباحثين الفرنسيين. كان منهم «جان نوييه» «مريم عبابسة» والمرحومة «صوفيا الفرا» التي أنهت دراستها عن الرقة، وتوفيت بحادث سيارة على الطريق بين دمشق وبيروت. عمل على إقناع وزارة الثقافة السورية للعمل على ترجمة كتابها «الرقة وأبعادها الاجتماعية» إلى العربية وفعلاً تم له ذلك.

أسس النادي السينمائي، ثم أسس تجمع فناني الرقة عام 1976 وقام بدعوة كبار الفنانين للعرض في الرقة، وكان منهم على سبيل المثال فاتح المدرس وناظم الجعفري ويوسف عبد الكي، والربط بينهم وبين فناني المدينة. جدير بالذكر، في هذا السياق، أنه اتصل به ذات يوم محافظ الرقة الأمني بامتياز محمد سلمان يطلبه إلى مكتبه فأجابه معتذراً بأن اجتماعاً يربطه الآن بفناني الرقة.

وأختم بشيء مما قيل فيه

... «هو ضمير الكُتّاب أو موجّه وعيهم الأخلاقي والثقافي والفني في الرقة، بل لقد كان أحد ضمائر الرقة أو ضميرها الثقافي الذي يجمعون عليه».

رحم الله الأستاذ عبد الغفور الشعيب

بحثاً عن مجد ضائع..
محمد خير ذياب الماشي مثالاً في منبج

عدنان الحسين

استطاع محمد خير الماشي، في يوم الثلاثاء 28 أذار الفائت من العام الجاري، جمع نحو 100 شخص من عشيرته وأقاربه، وقاد مسيرة مؤيدة لنظام الأسد في قرية أبو قلقل (جنوب شرق منبج 15 كلم) والتوجه بهم إلى مدينة منبج، حيث كان ينتظره هناك العشرات من مناصريه وأبناء عشيرته بغية الحشد لمسيرة كبيرة تدعو لعودة نظام الأسد وجيشه لمدينة منبج، والمطالبة بطرد ما أسموه الاحتلال التركي وكذلك الاحتلال الأمريكي لمنبج.

المسيرة التي تحرّكت من أبو قلقل، والتي قادها محمد خير ذياب الماشي -الابن الخلف لوالده ذياب، أحد وجهاء عشيرة البوبنا وعضو مجلس الشعب السوري سابقاً- برفقة أبنائه وأقاربه كمحاولة للبحث عن مجد ضائع وتسلّم مقاليد السيطرة على مفاصل منبج، رفعتْ أعلام نظام الأسد، ولافتات طالبت بخروج القوات الأمريكية من منبج والتركية من شمال سوريا، وهتفت بشعارات الموالين المعتادة بالروح بالدم.. لتصطدم بقوات قسد التي لم تُعارض المسيرة في البداية ظناً منها أن المسيرة ستكون فقط ضد الوجود التركي في المنطقة، إلّا أنها وجدت أن الهتافات واللافتات طالَت تواجدها وداعمها الأبرز(الأمريكيون) في المنطقة، فقامت قواتها بتفريق المسيرة بين مدينة منبج وأبو قلقل بالرصاص الحي، واعتقلت معظم المشاركين فيها، ومن بينهم ابنا محمد خير الماشي وأحد إخوته وأقاربه بالتزامن مع حملة اعتقالات لآخرين في أحياء مدينة منبج.

لم تكتف قسد بذلك، إذ قامت قوة أمنية تابعة لها بمحاصرة قرية جعيفية الماشي مسقط رأس محمد خير، وقطع الطرق في محيطها بحثاً عن منظمي المسيرات المؤيدة لنظام الأسد، كما تعرّض المشاركون في المسيرة لموجةٍ من الشتائم والمطاردة في أحياء مدينة منبج من قبل الأهالي، كون المدينة تعتبر أحد أبرز المدن الثائرة على نظام الأسد منذ مطلع عام 2011، لتنتهي محاولات الماشي بالفشل بعد الرد العنيف من قسد، إلّا أنه استمر ويستمر حتى اللحظة بمحاولات الحشد لعودة نظام الأسد للمنطقة، على أمل أن يحصل على مكاسب أضحت كحلم يُراوده.

تُعدّ الأهداف التي يطمح من خلالها محمد خير الماشي لعودة النظام لمدينة منبج وريفها كثيرة، لكن أبرزها تكمن تماماً في محاولته تجاوز فشله في عام 2015 في الحصول على أصوات أهالي منبج في انتخابات مجلس الشعب، على عكس المرشحين من باقي المناطق، وكذلك في محاولة إعادة أمجاد والده في المنطقة، واستعادة هيبته المفقودة لاعتبار نفسه شيخ عشيرة البوبنا بعد أن أُوكلت إلى بيت العجور في المنطقة.

عاد محمد خير الماشي لمدينة منبج بعد سيطرة قوات قسد عليها، حيث كان مطلوباً لقوات الجيش الحر نظراً لارتباطه بالنظام. ومع دخول قوات قسد عاد لمنطقته، كما تمكن من إدخال أبنائه ضمن منظومة قسد للإدارة المحلية لمدينة منبج، إذ تسلم ابنه علاء مُهمّتين إحداها ضمن لجنة الصلح، والأخرى في ديوان العدالة، رغم عدم حصوله على أي درجة علمية سوى إنه ابن محمد خير الماشي.

كما عمل محمد خير فور عودته على إعداد الكثير من الولائم بغية شراء ولاءات قيادات قوات قسد لجانبه، خاصة إبراهيم البناوي أحد أبناء عشيرته قائد فصيل جند الحرمين ضمن قوات قسد، وبقيّة القيادات الكردية كعدنان أبو أمجد القائد السابق لمجلس منبج العسكري الذي قُتل في معارك مدينة الرقة، وعدد من شيوخ العشائر في المنطقة.

فشل الماشي بإحراز نفوذ كبير في دوائر قسد المحلية في منبج، وظلّت تبعيته للنظام والتزامه بما يخطط له حول منبج أشد من أي تابعية أخرى. وكان أبرز الواقفين ضده هم أبناء عشيرته البوبنا حين اختاروا عواد العجور شيخا للعشيرة، وهو من الرجال الذين لم يُعلنوا موقفاً واضحاً من الثورة، إلا أنه وقف بشكل واضح ضد قرارات قسد وتجاوزاتها، كما أنه رافض لعودة النظام وتصرفات محمد خير الماشي في المنطقة.

العجور تمكن من إحياء دوره في المشيخة وسحبها من آل الماشي، وتمكن من حشد كافة العشائر للوقوف في وجه قسد، بل قاد الرفض لممارسات قسد، وطالب وبقية العشائر بدور أكبر لهم في حكم مدينتهم، وكذلك في تثبيت أركان مشيخته وسحبها من محمد خير.

يمكن القول إن نظام الأسد وجد في عشيرة البوبنا عبر محمد خير الماشي طريقاً للعودة إلى منبج، كما وجد محمد خير في النظام سلطة واسعة قد يحصل عليها ويعود من بوابتها لمجلس الشعب. لكن العشيرة تداركت ذلك عبر إصدارها عدة بيانات عينت من خلالها عواد العجور شيخاً عاماً لها، وأكدوا كذلك رفضهم لكل محاولات التواصل مع نظام الأسد، وكذلك التجاوزات العديدة لقسد في المنطقة، من خلال خلق توازن وإضعاف كفة النظام بشكل كامل جنوب شرق منبج، وهي المناطق الأقرب لنظام الأسد.

Reuters

يوم كان «الطرانس» الشمالي قضيتنا المركزية

محمد جلال

مع بداية عام 2013 حدث تطوّر مفاجئ فيما يخص خدمة الكهرباء، التي قُطعت عن جنوب غرب حلب لأشهر طويلة. فبعد حاجة النظام لتشغيل محطة تحويل الزربة ليُغذي مناطق سيطرته في مدينة حلب، اضطر لتزويد مناطق الثوار بحصة ممتازة من الكهرباء القادمة من محطة محردة في ريف حماة. جرى تقسيم هذه الحصة على ريف حلب الغربي والجنوبي، وجزء من ريف إدلب، ما تسبب في قضية الطرانس الشمالي، الذي كان يوماً من الأيام محور اهتمام أهل قريتي ومصدراً للنزاع فيما بينهم.

قريتي كانت إحدى القرى الكثيرة التي استفادت من خدمة الكهرباء التي كانت تأتي على شكل عدد قليل من الساعات يومياً. لم يكن هناك جهة تتولى الأمور الخدمية ذلك الوقت، خصوصاً مع عدم وجود مجلس محلي يمثل القرية، فاضطر الأهالي إلى معالجة هذه القضية بالطريقة التي يعرفونها: انقسم سكان القرية حسب المحوّل الذي يتبعون له في شبكة الكهرباء، أو ما يعرف بالـ «طرانس» اختصاراً لاسم المحول باللغة الانكليزية «Trans». منزلي يتبع للطرانس الشمالي الواقع على مدخل البلدة.

تلقائياً، وبفعل الحاجة الضرورية للكهرباء، صار الطرانس الشمالي أحد الممتلكات الثمينة لأبناء هذا الحي. فمع كل مشكلة تجد ممثلًا عن كل عائلة بالقرب من الطرانس فيما بات يعرف بـ «مجلس إدارة الطرانس».
أولى المشاكل ظهرت مع اليوم الأول لوصول التيار الكهربائي: فالخدمة كانت مجانية، ولم يكن أحد يدفع قيمة ما يستهلكه من الكهرباء، والجميع كان يستخدمها لتشغيل الغطاسات التي تزوّدهم بالمياه، والسخّانات للتدفئة أو لتسخين الماء. لم يكن يتحمل الطرانس أكثر من دقائق حتى ينزل قاطعه وتتوقف الكهرباء. غالباً ما كان يتشجع أحد الأعضاء ويذهب إلى المسجد ويبدأ بالنداء على السكان لتخفيف الحِمل عن الطرانس. في الغالب كذلك لم نكن نستفيد من هذه الخطوة، فالجميع كان يظن أنه غير معني بهذا النداء، وأن الطرانس لن يفصل بسبب سخّانته وغطّاسه، فقمنا بتأمين عصا خشبية لرفع القاطع كلما تطلّب الأمر.
تطوَر الأمر، لاحقاَ، إلى تمديد كابلات من خطوط الشبكة الرئيسية للاستفادة من أكبر قدر ممكن من التيار الذي لا توفره الخطوط المنزلية. بدأت الاشتباكات اللفظية بين مجلس إدارة الطرانس والمُعتدين على الشبكة العامة، وانتهت بهزيمة المجلس، الذي لم يكن المعتدون إلا أقارب أعضائه وأعمامهم وأخوالهم، وامتداد الاعتداءات لتشمل جميع رعايا الطرانس على مبدأ «مو واقفة علي».
لاحقاً، ومع استمرار وصول التيار الكهربائي بشكل متقطع ومتغير من حيث ساعات التغذية، بدأت الصراعات الداخلية تضرب مجلس إدارة الطرانس، فانقسم إلى ثلاثة مجالس لإدارة الـ «فاصمة» يستخدم كل منهم عصاته الخشبية الخاصة لرفع القواطع. فكل طرانس كان يحتوي على ثلاث فواصم تربط كل واحدة منها خطّاً يُغذي جزءاً من الحدود الإدارية للطرانس.
هذا الانقسام كان بفعل عوامل خارجية، تمثلت بتمديد خطوط لوصل الكهرباء من قبل أشخاص ينتمون لطرانس مجاور، إما لتخفيف الضغط الذي يتعرض له ذلك الطرانس، أو لزيادة خياراتهم من حيث قوة الكهرباء، وتأمينها في حال تعطل أحد الطرانسات.

هذه المشكلة قديمة، إلا أنها انفجرت بشكل مفاجئ مع احتراق كامل لطرانس صديق بالقرب من وسط القرية، مما استدعى مدّ المزيد من الخطوط إلى طرانسنا، فازداد الضغط عليه بشكل غير اعتيادي، واقترب مصيرنا من مصير جيراننا. وبدا أن طرانسات القرية مُهددة بالاحتراق كأحجار الدومينو.
على الفور اجتمع مجلسا الفاصمتين وقرروا قطع الكهرباء عن فاصمتنا، لأن الخرق حصل من جهتنا. لدى معرفتنا بالأمر قُمنا بالهجوم على الطرانس وقطع التيار عن الجميع. جاءت الوفود إلى مكان الطرانس على الطريق العام لحل المشكلة. قلنا لهم أن الطرانس لن يعمل إلا بالفاصمات الثلاثة، وردّ خصومنا بأن فاصمتنا لن تعمل، إلا بعد نزع التمديدات الخارجية التي تُهدّد مصير الطرانس.
قطع الجو المتوتر حادث مروري أمام الطرانس مباشرة، بعد أن أدى انشغال سائق دراجة نارية بالتجمع الغريب لاصطدامه بسيارة مارّة من الجهة المقابلة. قاموا بإسعاف المصاب الذي نجا من أن يكون أول شهيد في سبيل الطرانس الشمالي.
إثر الحادث اتفق الجميع بشكل سريع على حل وسط يقضي بتشغيل الطرانس مقابل التعهد بقطع كل التمديدات الخارجية. المشكلة أن التمديدات الخارجية مجدداً لم تكن سوى للأقارب والأعمام والأخوال، فَصَلهم عنا حدود رسمتها شركة الكهرباء عندما أنشأوا الشبكة لتسهيل التحكم بها.
انتهى الجدال بقطع التمديدات، بعد زيارات مكوكية للجيران لشرح الوضع الصعب الذي تمر به الجبهة الداخلية للطرانس الشمالي، والذي يُعد من أهم طرانسات القرية.
في وقت لاحق تحسنت الظروف مع شراء طرانس جديد بدلاً من الطرانس المُحترق، إضافة إلى انفصال جزء من رعايا الطرانس الشمالي، بعد أن اشتروا طرانساً خاصة بهم، للخصوصية التي يتمتع بها السكان في ذلك الجزء من القرية، من حيث عاداتهم وإمكانياتهم المادية.
للأسف، في وقت لاحق صادف خريف 2015، سيطر جيش النظام على القرية، ولم يعد هناك لا طرانس شمالي ولا جنوبي، ولا حتى سكان القرية بقوا فيها، بعد أن تركوا خلفهم بيوتهم وأراضيهم وطرانساتهم.

نقطة الاشتباك في حي برزة بعدسة الكاتبة

حي برزة الموصد وحكاية دروع الدولتين البشرية

رانيا العيسى

يُطل علينا المذيع في برنامجه (آآآآخر ساعة) كما اعتاد قولها، في النشرة (99 قتيلاً في سوريا اليوم حصيلة...) أضحك ساخرة، لم كل هذه الدقة؟ باستطاعته أن يقول (100!). لم أُكمل الأخبار، دخلت غرفتي بعد خطوتين نزلت على ركبتيّ...لو أكملت خطوة ثالثة لاستقرت رصاصة في رأسي..تركت أثراً على باب خزانتي، لازالت أمي تُصرّ على وضع زهرة تُخفي أثرها، حتى استحالت جدران غرفتي إلى مشتل أزهار لإخفاء آثار الشظايا.

مضى أسبوعان قبل أن نعبر الشارع الفاصل بين الموت والموت، كنت برفقة والديّ وأختي، التفتّ إلى منزلي، شعرتُ بثقل الأغراض القليلة التي أحملها وأنا أمر أمام العساكر التي تنظر إلينا. بين السواتر الترابية كنا ننطق بالشهادة، أصبحنا الآن في عداد النازحين.

ثلاثة أشهر مرت ولا زال والدي يعيش حالة (يومين ومنرجع)، وتجيبه أمي (بس يفتح الطريق....). كانت صلاة الفجر الأخيرة لنا في البيت الذي انتهى عقد إيجاره. بيت آخر ينتظر تنظيفاً و(رمضان عالباب)، كانت أمي آنذاك تُنظّف وتبكي وتكيل بالدعاء على المنزل وصاحبه، وتنتظر مكالمة جارتها الشاكية الباكية الخائفة لتسرد لها أحاديث عن داعش والنصرة، تُشعل جبهة وتنهي حرباً بمكالمة، وكأنها في خطوط القتال الأول، ثم تنهي مكالمتها بعد أن تفرغ خوفها في قلب أمي.

من هنا مرّ جنود الأسد

(هلأ اتفقنا حجي إن شاء الله الأسبوع القادم لح تطلع منظمة اسمها AYM لح تأمن لنا بيوت مؤقتة خلال شهرين ونص). أخيراً أطل علينا محافظ دمشق في فيديو، بدا متعباً منهكاً لا يرتدي ربطة عنق، خلافاً لمرافقيه، ليخبرنا بإمكانية العودة إلى حي برزة بعد إغلاقه قرابة العام.

يوم الاثنين كان موعدنا الأول مع العودة، (كولبة) على الرصيف.. ماذا نفعل؟ (اترك هويتك وسجل اسمك وادخل!). تعلّقت عيناي كغيري على أبنية مشوهة، محترقة، متآكلة وكأنّ أسيداً سُكب عليها، شرفة تكاد أن تهوي، أتعثّرُ بحفر أحدثتها شظايا لم أحصيها، أُقلّب نظري بين الأبنية سراعاً لأرنو إلى منزلنا من بعيد. الماء ينهمر من كل ثقب، روائح نتنة، أثاث متآكل وزجاج نوافذ. أحد العساكر يُشعل كرسياً عرفت من قماشه أنه يعود لجارنا، دكتور جامعي ومرتشي أيضاً، منزل جارنا الثاني محترق بالكامل، يعود إلى موظف وزوجته في الجمارك.

(اطلعوا لعند العقيد..بالطابق الثالث). احتل العقيد منزل (سفير سابق) ظننته في البداية متجراً لبيع الإلكترونيات، كان الصالون محاطاً بشاشات تلفزة موصولة بكاميرات ترصد ما حول البناء. في غرفة الضيوف وأمام مدفأة تركت آثار وقودها على السجاد العجمي كان العقيد يتكئ بحذائه على كنب فخم، سابقاً كان بيت السفير يحوي في أثاثه قطعة من كل بلد، برّر العقيد كثرة الشاشات، لم أفهم شيئاً من كلامه سوى أن البناء الذي نسكن فيه بات خطاً فاصلاً بين جيش النظام والحر ونحن (درع بشري)!

انتهت جلسة الاستجواب والتفتيش، خرجتُ قبل والدي مسرعة في الصعود أُطالع ما كُتب على الجدران (من هنا مر جنود الأسد -الفرقة الرابعة- المخابرات الجوية..)

العشاء الأخير

علامات خدش عميقة تشي بمحاولة خلع الباب..منزلنا مقلوب رأساً على عقب، مشيت على ثياب وأغراض ملأت المكان. شيء أسحقه دون قصد فينكسر، رائحة نشادر..آثار دم، صور نساء عاريات تخلصت منها أولاً، لم أجرؤ على فعل أكثر من ذلك فالعسكري يتعقبني. مُنع والدي من تركيب قفل للمنزل، في اليوم التالي فُقدت جميع الأجهزة الكهربائية، قبيل خروجنا كانت اللجان الشعبية تسرق، من بقي إذن؟ الشرطة العسكرية والمخابرات الجوية والقوات الخاصة والأمن السياسي.. علماً أن الأخير كان الفوج الأخير الذي يقطن البناء!

في كل زيارة تتفحص والدتي وجهي عند عودتي علّي أُخفي شيئاً، اعتادتني أُخفي الكثير من الأخبار السيئة عنها. يمازحني زميلي بالقول (تتجولين في منزلك وأنت بين دولتين!). أنامُ في غرفتي المطلة على حاجز للنظام، أطهو طعامي في المطبخ المطل على حاجز للجيش الحر! بدأت أطالع تقارير صحفية عن حياة الناس أمثالي ممن يعيشون بين جبل محسن وباب التبانة في طرابلس، حتى استحالت بيوت البعض إلى عجلات سيارات تتموضع عند النوافذ.

اعتدت المضي في طريق مشترك بين طرفي الصراع في مدة أقصر من المعتاد خوفاً من اشتعال فتيل اشتباكات لا موعد لها، أقف عند حاجز الحر يسأل. أمضي إلى حاجز النظام ويسأل، والمضحك في الأمر أن كل منهما يعتقد أني من طرف عدوه! واعتدت النزول على ركبتي للحبو كطفلة أختبئ مع والدي الذي يئن من ألم في ظهره تحت طاولة الطعام، التي اعتدت مسح غبارها فقط... لم يجلس إلى مائدتنا أحد مذ عدنا إلى المنزل خوفاً من أن يكون العشاء الأخير!

أن تعيش بين دولتين يعني أن تكون درعاً بشرياً يلزم وجودك كذريعة لكل طرف، يعني أن تحمي وجوده، يعني أن يُهدّد بك، يُقاتل بك ويقتلك ليتهم عدوه بقتلك، يعني أن تعتاد على سقوط قذيفة واثنتين أو أكثر وإن نجوت تكمل طهو طعامك، يعني أن تعيش يومك وإن بقيت حياً يعني أن تناجي الله، وإن كنت من قبل صامتاً تسأله الخلاص...أيّ خلاص من حالٍ مستعصٍ يعكس حال وطن.

٨ نيسان - ٢٠١٨ - عدسة سام

الأيام الأخيرة في مدينة دوما كانت قاسية على الجميع. عاش المُحاصَرون في أقبية تحت الأرض، منقطعين عن العالم الخارجي، دون كهرباء أو شبكة إنترنت، مع انعدام أدنى مقومات الحياة. وشكّلت الأيام التي سبقت الخروج الكبير، من الغوطة، بالنسبة للكثيرين رُعباً لا يوصف، كونها كانت اللحظات الأكثر إيلاماً وتوحشّاً ودموية.

آخر ساعات دوما عشيّة الخروج الكبير

محمد كساح

يسأل الصغير «أحمد» بصوت لا يخلو من البراءة «ماما نحنا بالجنة؟ مو أنت قلتي أنو الجنة مليانة بالأكلات الطيبة والألعاب. هي الجنة معنانا». الصغير الذي لم يتجاوز الـ 5 سنوات والمولود في مدينة دوما شرقي دمشق كان فرحاً لتخلّصه من معيشة قاسية، لم يعرف سواها منذ إطلالته على الدنيا. بعد دقائق أتى أحمد فرحاً مرة أخرى «أمي لقيت مكان لنحفر النفق». «بالجنة ما في أنفاق يا أحمد»، أجابت الأم وقد احتارت كيف تُفهم طفلها أنه ليس في الجنة، بل في إدلب الخضراء.

تمرّ لحظات لا يُمكن للمرء تخيلها وهو يعاود استرجاع ذاكرته، الشعور بالعجز وبالضيق الشديد، انعدام الخصوصية داخل القبو أو النفق المظلم المحشور بعدد ضخم من العائلات، زعيق الأطفال والنساء عند سقوط الصواريخ الفراغية أو العنقودية بعد رحلة عناء رهيبة في متابعة عواء المقاتلات وهي تخترق جدار الصوت، إمضاء الوقت في قبو تحت الأرض، كل ذلك أدى لحدوث تبلّد في الذهن. ومع عويل الجرحى وهدير الطائرات والحوامات يفقدُ المرء أي قدرة على التركيز

في الأيام الأخيرة التي سبقت قدوم الباصات، ونتيجة لمئات الغارات والقذائف اليومية، تحوّلت الغوطة إلى ما يُشبه كانتونات صغيرة، كل حي أو حتى مبنى تحوّل لبقعة مظلمة منقطعة عن العالم الخارجي، ومع تزايد حدة القصف باتت التواصل بين هذه الأمكنة التي تُشبه الجحيم أقرب إلى المستحيل.

يُحاول «عبد الله»، وهو مصور صحفي شهد حصار المدينة وعايشه عن قرب، التحدث في بعض التفاصيل العالقة في ذاكرته: «القبو في كثير من الأحيان لم يكن مجهزا بأرضية إسمنتية، إضافة لانعدام دورات المياه أو الحمامات. وما كان يزيد من المعاناة اضطرار البعض إلى النزوح من قبو لآخر، حسب الخط الميداني للمعارك».

قبل ساعات من رحيله ودّع عبد الله مدينته مُلتقطاً بعض الصور الفوتوغرافية. تجوّل في سوق دوما المُدمّر معرّجاً على الجامع الكبير الذي لم يسلم من الاستهداف. توقّف الزمن للحظات بينما كان يحملق في منبر المسجد، تخيّل الخطيب وهو يُسلّم على المُصلّين في بداية خطبة الجمعة، اعتاد عبد الله الصلاة في هذا المسجد مع أصدقاء الدراسة القدامى، كان ذلك قبل الثورة، وها هو اليوم على وشك أن يُحرم حتى من زيارة المسجد الذي ضمّهم كل تلك الأيام.

أكثر ما يحزّ في قلبه غرفته الصغيرة على سطح بيت العائلة. صعد السطح محاولاً التقاط صور للغرفة لكنها كانت مدمرة بشكل تام. عاش في هذه الغرفة، التي لا تتجاوز مساحتها مترين ونصف المتر، أجمل أيام حياته. قلّب بعض مجلدات الكتب المختلطة بالركام، أمسك أحدها ماسحاً الغبار عن جلده البني، إنه كتاب «تاريخ دوما» لابن بدران العلامة الدوماني الشهير. فتح الصفحة الأولى «انتهيت من قراءته في 22 - تموز 2010».

قبل أسابيع من التهجير، وفي داخل أحد الأنفاق، جلست السيدة «نيفين الحوتري» (36 عاماً) إلى جانب طفلتها الصغيرة «مايا» (5 سنوات) لتساعدها على النوم، وسط جو من الرعب الذي كانت تبثه هدير المقاتلات الحربية وأصوات لا تنتهي من الانفجارات.

امتلأ المكان بعشرات العائلات، بينما تحاول السيدة العناية بطفلتها «كنت أنام إلى جانب مايا واضعة يدي على أذنها حتى لا تسمع أصوات القصف في الخارج. وعدتُها بأصناف من الحلوى والبسكويت والشيبس. الرجال ينامون في مكان والنساء في مكان آخر. هنا يشتاق المرء للخصوصية وللنظافة. وتمضي الساعات كئيبة مملة ومرعبة في كثير من الأحيان».

تواصلُ الجيران مع بعضهم كان صعباً جداً، فشبكة الإنترنت مقطوعة، وحتى إن توفرت لم يعد بالإمكان شحن الهواتف النقالة نتيجة انقطاع التيار الكهربائي، الذي كان يحصل عليه السكان عن طريق مولدات كهربائية كبيرة منتشرة في جميع الأحياء.

اجترح بعض الأشخاص حلولاً لإيصال صوتهم رغم كل الظروف، نيفين على سبيل المثال، كانت تكتب تدوينة على الفيس بوك، ثم تصعد إلى الطوابق العلوية للمبنى لتتمكن من نشرها «في إحدى المرات، نزل صاروخ عنقودي أثناء تواجدي في الطوابق العُلوية.. لكنني نجوت».

بعد تهجيرها إلى إدلب اشترت نيفين لطفلتها كمية كبيرة من المأكولات الفاخرة «كان ثمنها يعادل 4 بسكوتات سيئة النوعية التي كنا نشتريها في دوما».

مسروقات الغوطة تُحرّك أسواق جرمانا بريف دمشق

شيوخ دين يبيحون المسروقات كغنائم حرب وآخرون يحرمونها

برهان نوفل

على واجهة بعض المحلات التجارية في حي جرمانا بأطراف دمشق يُقاطع بعض الباعة ظاهرة «الغنائم» من المدن والبلدات التي تدخلها قوات النظام بعبارة «لا نعمل بالمعفش والمستعمل»، لكن تلك المقاطعة تبدو بلا تأثير يُذكر في الأسواق، التي تشغل الغنائم كل متر مربع فيها هذه الأيام، من أثاث منزلي وأدوات مطبخ وأبواب وشبابيك وألبسة وخردوات وغيرها مما جلبه القادة والعناصر في قوات الأسد من منازل السكان وممتلكاتهم، بُعيد سيطرتها على مدن الغوطة الشرقية وبلداتها.

يبدو رفض التجارة بالمسروقات استنكاراً شجاعاً من أولئك الباعة، وإن وجدوا لذلك تبريراً يُبقيهم في دائرة الولاء للنظام، بأن «الرئيس ما يرضى بهيك سلوكيات»، وأن «هدول المعفشين بيسيئوا لشهداء الجيش»، وكثيراً ما سقط هؤلاء الشهداء أثناء السرقة أو استعجالاً لها.

يشرح سائق سيارة الأجرة، أثناء توقفنا خلف شاحنة محملة بالأبواب والشبابيك، أفضلية الألمنيوم على غيره من المعادن، بغلاء سعره وسهولة بيعه كما هو، أبواباً أو شبابيك أو طناجر مطبخ، وسهولة صهره كذلك مقارنة بالمعادن الأخرى، أو صهره قبل البيع. يمتثل بعض المارة في الأسواق لفتاوى متداولة تُحرّم شراء المسروقات، ولا يُبالي الأكثرية بذلك، ويجد بعضهم في فتاوى معاكسة إرضاء كافياً للضمير.

تُفاخر أم خالد، وهي زوجة ثلاثينية من حلب لعنصر في ميليشيا تابعة للنظام، بما يجلبه زوجها بين حين وآخر: «براد بابين كبير، وجلاية ومكرويف وفرن، وقلاطق تقال وغرفة نوم» أثثت به بيتها المُستأجر في مخيم جرمانا للنازحين، ولا تنسى، في تباهيها بهدايا الزوج، أن تُعرّج همساً وبطرق مختلفة لفتوى تنسبها لشيخ «مسلم سني» أباح فيها «الغنيمة»، لأن زوجها و«زملاءه»، حسب ما تشرح من رأسها، يُخاطرون بحياتهم ويحملون دمهم براحات أيديهم.

لا تهتم أم فاطر من ريف اللاذقية بالفتاوى، وكل ما يشغل بالها عودة زوجها العنصر في ميليشيا «النمر» سالماً وغانماً بعيد كل معركة. ومن بين ما يجلبه من «أرزاق» وافرة، تُبدي اهتماماً خاصاً بالموبايلات التي تُوزّع بعضها هدايا هنا وهناك على الأقارب والأصدقاء، ولا تُخفي غضبها على دوريات الأمن التي تلاحق أحياناً -ومن دون جدوى- تجار الغنائم ومُورديها «خطي، الله يحرق قلوبكن متل ما عم تحرقوا قلوب هالفقرا».

لا يُمانع أسامة، وهو شاب دمشقي يعمل في مكتب عقاري بجرمانا، في شراء ما يلزمه من البسطات، ويرى فيها مجرد ظاهرة من الظواهر التي تُخلّفها الحروب، ويجد في شراء المسروقات حلاً يخفف على النازحين القادمين من خارج دمشق ما يُلاقونه فيها من غلاء لكل شيء «طلعوا بتيابن، ما قدروا يجيبو فرش ولا عفش» حسب ما يقول، وهو يحاول تشغيل «لابتوب» من حرستا اشتراه ب(500) ليرة.

انتقل سامر، وهو شاب من ريف السويداء، إلى جرمانا للسكن في بيت اشتراه حديثاً، ورغم عجزه عن شراء أثاث كامل وجديد لهذا البيت، إلا أنه ما يزال يرفض شراء ولو «مخدة مسروقة»، وينقل سامر عن شيوخ من الطائفة الدرزية التي ينتمي إليها فتوى تُحرم شراء المسروقات، ويفسرها بموقف مبدئي لدى البعض، وضغط من شرائح مثقفة في مجتمع الطائفة لدى البعض الآخر، تجنباً لصراعات طويلة الأجل مع أهالي المدن والأحياء المجاورة لجرمانا.

تقع بين حين وآخر اشتباكات بين عناصر الميليشيات بسبب «الغنائم» وتقاسم الشوارع والنفوذ في أسواق البيع، تتصاعد إلى حد تخلو فيه الأسواق من الزبائن، قبل أن يتدخل ضباط وقادة أرفع شأناً ويفضوا الاشتباكات، ثم تعود الحركة إلى طبيعتها.

سلمى موظفة حكومية في الثلاثينات من العمر تهوى جمع الإكسسوارات والحلي المقلدة، وتنفق جزءاً من راتبها الشهري في شراء قلائد وأساور وحلقات، وجدت عقداً أعجبها على واحدة من بسطات جرمانا، وعادت فرحة بمهارة صنعه وسعره الرخيص «300 ليرة بس»، لكن فرحتها زادت عندما اكتشفت أثناء تنظيفها للعقد أنه من الفضة، ولا يقل ثمنه عن (20) ألف ليرة.

لا بد أن امرأة ما، في واحدة من بلدات الغوطة، قد فرحت في يوم ما بهذا العقد.

درعا بين طموحات اللاعبين وأدواتهم

أحلام السعادات

تعيش محافظة درعا، التي انطلقت منها شرارة الثورة السورية، مرحلة ترقّب مصير غير واضح المعالم، بعد ترويج النظام لإبرام اتفاقات مصالحة في مدن وبلدات بالمحافظة، تزامن مع تهديدات روسية بأن المنطقة ستلاقي مصير الغوطة الشرقية في حال عدم الموافقة على هذه المصالحات.

من الصعب عزل ما يحدث في الجنوب السوري عن استراتيجية الأطراف التي تتدخل بشكل مباشر، أو غير مباشر، لرسم خارطته بما يتوافق مستقبلاً مع أجنداتها. ويُعتبر النظام وحلفاؤه والأردن و«إسرائيل» الأطراف الرئيسية التي تتدخل في المنطقة، بحيث يتمثل وجود النظام في سيطرته على بعض المدن والبلدات وتمركز قواته في بعض القطع العسكرية، ومن خلال بعض العملاء ولجان المصالحة بالمناطق المحررة، فيما يتمثل تدخّل الأردن في وجود الفصائل العسكرية التابعة لغرفة الموك، ومن خلال بعض المنظمات، أما «إسرائيل» فعملت على بناء علاقات مع بعض الفصائل المتمركزة قرب الجولان المحتل عن طريق تقديم الدعم الإغاثي والطبي، إضافة إلى مراقبة ومسح المنطقة بشكل كامل والتدخل العسكري في بعض الأحيان.

على أن أدوات الأطراف مازالت غير فاعلة قياساً بالأهداف المُعلنة والمُضمرة. فمازال النظام يعتمد، حتى الآن، على نشر إشاعات حول نيته اقتحام المناطق المحررة عقب انتهاء اتفاق خفض التصعيد، مخيراً الأهالي بين الحل العسكري أو المصالحة، إلا أن أيّاً من هذه الإشاعات لم تتحقق، لأنه، على مايبدو، لا يملك اتخاذ أي قرار في المنطقة الجنوبية لخصوصية موقعها الجغرافي/السياسي، ولأن أي عمل عسكري يعني حرب استنزاف، ونقل الفوضى إلى الحدود الأردنية و«الإسرائيلية».

نشرُ الإشاعات جاء بالتوازي مع اختراق صفوف الفصائل العسكرية لإجبارها على اختيار المصالحات، عبر عملاء للنظام وميليشياته أو خلايا نائمة بين الحين والآخر، كان آخرها خلية تابعة لميليشيا حزب الله في مدينة جاسم شمالي درعا، قيل إنها تُحضّر لاستهداف «إسرائيل» والأردن بالصواريخ، وهي تطبيق لسياسة النظام في تهديد أمن المنطقة تماشياً مع التصريحات التي كان يُطلقها بهدف إثارة الفوضى والعبث بالرأي العالمي.

يقول أبو بكر الحسن الناطق باسم جيش الثورة التابع للجيش الحر، إن «النظام اعتمد على أشخاص محسوبين عليه في المناطق المحررة لترويج فكرة المصالحات، التي قوبلت بالرفض من قبل المؤسسات الثورية، ما أدى إلى فشل ما وصفه بـ «المخطط الخبيث». مُعتبراً أن المعطيات الحالية تُشير إلى أن المنطقة ستبقى من أبرز معاقل الثورة السورية، لوجود عوامل الصمود، من الحدود مع دول الجوار إلى تجهيزات لوجستية مُساعدة كعشرات المشافي المجهزة».

بينما تلجأ روسيا بتهديداتها إلى الحرب النفسية للتأثير على الرأي العام المحلّي في درعا، لمعرفتها أنها غير قادرة على تدمير منطقة حوران كما فعلت في الغوطة الشرقية لوجود عدة أطراف مؤثرة في المنطقة، فضلاً عن الحدود التي تملكها حوران مع الأردن، كما يرى (الحسن)، فروسيا «لن تُغير شيئاً على الأرض، بعد أن اختبرت ثبات ثوار حوران في معركة «الموت ولا المذلة» بحي المنشية بدرعا، ولم تتقدم لمتر واحد». مرجحاً أن يكون لدول الجوار في درعا دور في تحجيم تدخل روسيا، فالأمر عبارة عن «توزان مصالح في المنطقة».

وتخضع المعارضة في الجنوب لإملاءات الولايات المتحدة، التي تحمي المصالح الإسرائيلية وتمثل خط الدفاع عنها، رغم توقف دعم «الموك»، حسب القيادي في الجيش الحر «أبو العباس»، الذي اعتبر أن أمريكا و«إسرائيل» لن تسمحا برسم خريطة لسوريا بشكل عام، وللجنوب بشكل خاص، إلا إذا كانتا موافقتين عليها، فيما تتماهى الأردن مع سياسة الدولتين.

وحسب قائد فرقة الحق التابعة للجيش الحر إبراهيم الغوراني، فالأردن يسعى إلى التوصل لحلّ سياسي يُرضي جميع السوريين، ويضمن إعادة اللاجئين والنازحين إلى ديارهم، بينما الهمّ الرئيسي لـ «إسرائيل» هو الحفاظ على حدود الجولان المحتل، بعيداً عن تواجد الميليشيات الإيرانية وحزب الله.

أما الدور الأمريكي في المنطقة فيظهر أنه يخضع لمراجعات وإعادة ترتيب، رغم أن «الولايات المتحدة هي ضامن المعارضة السورية في الجنوب، تُراقب مجريات الأحداث الجارية عن كثب دون تحريك ساكن، إلا مطالبة الفصائل التحلي بضبط النفس والتقيد باتفاق خفض التصعيد والرد على الخروقات فقط» كما يقول «الغوراني»، الذي يؤكد أن هدفهم التخلص من تنظيم «داعش» والمتمثل بـ «جيش خالد بن الوليد» في منطقة حوض اليرموك، رغم توقف الدعم عن الجبهة الجنوبية منذ نحو خمسة أشهر، ما جعل الثقة بالولايات المتحدة تتراجع.

لكن من غير الواضح مدى صدق الجانب الأمريكي في الحفاظ على اتفاق خفض التصعيد، إلا أن الحدود مع الأردن والجولان المحتل الهاجس الأكبر له، كما يشرح محمد عدنان الإعلامي في (جيش العشائر)، إذ يحاول إبقاء الهدوء سيد الموقف.

يبدو أن جميع الأطراف تسعى إلى إضعاف منطقة الجنوب، من خلال إطالة أمد الصراع بين فصائل الجيش الحر والنظام من جهة، والحر مرة أخرى و«جيش خالد» من جهة أخرى، وعدم التمكين من حسمه إلى الآن، فبعد أن سيطرت الفصائل على مساحات واسعة في درعا والقنيطرة، تسود المنطقة الآن حالة من شبه الهدوء منذ نحو عامين، تتخلله تشنجات موضعية دون أن تظهر أي علامات للمستقبل الذي ينتظر المنطقة.

شبكة بلدي - متداولة على الإنترنت

الولاء شرط البقاء في دولة الأسد

مئات الآلاف من خريجي الجامعات رحلوا بلا نية للرجوع

فواز الفارس

لم تشفع المكانة العلمية لابن درعا الدكتور عمار العمّارين (دكتور الهيدروجيولوجيا في جامعة حلب) في منع اعتقاله من قبل الأمن العسكري لمدة 25يوماً في تشرين الثاني 2011، ولم تدم حرية العمارين أكثر من أربعة أشهر قضاها في مدينة دمشق كمنسق لجامعة حلب، حتى ألقى الأمن القبض عليه على حاجز أشرفية صحنايا القريب من منزله في 2012/3/28.

كان هذا الاعتقال الأول لدكتور جامعي في مدينة حلب، وكانت التهمة، على حد قول أصدقائه، مشاركته لصورة من صفحة فيصل القاسم بعنوان «من أكل الشوكولاطا». إلّا أن عشرات التقارير التي رُفعت إلى أفرع الأمن من قبل دارسين وزملاء له، بالإضافة إلى كونه ابن محافظة درعا، ونشاط بعض أقربائه في صفوف المعارضة، هو ما أدى إلى اعتقاله بحسب آخرين.

حادثة العمارين فتحت الباب أمام هجرة الكثير من الكوادر التدريسية والكفاءات العلمية العالية إلى خارج البلاد، كان أولهم زملاءه في قسم الجيولوجيا الذي خلا من الدكاترة، إذ لم يبق في القسم سوى ثلاثة دكاترة (من أصل 15 دكتوراً في عام 2011)، أحدهم تم التمديد له منذ سنوات لوصوله إلى سن التقاعد. وليتخرّج من القسم نفسه في عام 2017طالبان فقط، أحدهما، بموجب قانون التعليم العالي، سيسافر لإكمال دراسته، فيما سيُعيّن الآخر كمُعيد في القسم الذي ضم هذا العام في سنته الأولى سبعة طلاب فقط، ولينال جائزة الباسل بالتزكية وقيمتها 10 آلاف ليرة سورية!

أسباب وأرقام

إن ظاهرة «نزف العقول» ليست جديدة في الواقع التعليمي السوري، وبحسب دراسة أجراها المعهد الوطني للإدارة العامة في مناطق النظام فإن عدم تقدير الكفاءات، وغياب الإنفاق على مراكز البحث العلمي، وانخفاض الرواتب والتعويضات، وإلحاق الكفاءات بوظائف لا تتناسب مع تحصيلهم العلمي، يُعتبر من أهم الأسباب في هذه الظاهرة. ووفقاً لبيانات الأمم المتحدة فإن نسبة هذه الهجرة قد ارتفعت إلى 10.7 % في عام 2010، بعد أن كانت 6.03 % بين عامي 2000-2005، جُلّهم من أصحاب الكفاءات العلمية. زادت هذه النسبة في أعوام الثورة، فبحسب دراسة قام بها مركز الإحصاء التابع للنظام هناك 17000 شهادة (دراسات عليا ودكتوراه وطب وصيدلة) خرجت من سوريا بطريقة نظامية حتى 2015، ووفقاً لتقارير المفوض السامي لشؤون اللاجئين في الأمم المتحدة أن أكثر من مليون شخص سوري وصلوا إلى أوروبا، 50 % منهم يحملون إجازات جامعية. وحسب صحيفة دي فلت الألمانية «5000 لاجئ يحملون شهادات عليا تتناسب مع معايير الدراسات الأكاديمية الألمانية وصلوا إلى ألمانيا» في العام نفسه.

بالإضافة إلى الأسباب السابقة فإن المنهجية المستمرة التي انتهجها نظام الأسد لتطفيش العقول «المستقيمة» التي تعرقل فيضان الرفاق وأبنائهم الشبيحة، وفقدان الجامعات لوظيفتها الأكاديمية والاجتماعية لصالح تحوّلها إلى مصالح أمنية، والاعتقالات التعسفية، وزجّ الكفاءات العلمية في «خدمة العلم والاحتياط»، وانحياز الكثير من الدارسين للثورة السورية (مع تركّز التعليم الجامعي في مناطق النظام، إذ لم تكن هناك جامعات في المناطق المحررة)، وغياب فرص العمل وغلاء المعيشة، شكّلت أسباباً رئيسية لنزف العقول السورية إلى دول أخرى، خاصة تلك الدول التي سهّلت عملية الهجرة واستقطبت هذه الكفاءات، وأعطتها الأولوية للاستفادة منها.

الولاء للأسد هو شرط البقاء في البلد

لم يولِ نظام الأسد ظاهرة نزف العقول تلك الأهمية، ولم يسعَ، سواء في حكم الأسد الأب أو الابن، لاستقطابها وإعطائها دورها الحقيقي، بل عمل على تطفيشها من خلال التهميش والاعتقالات والتصفية لكثير من الأكاديميين الذين يُخالفونه الهوى من جهة، أو إجبارهم على الهجرة من خلال الاعتقالات المتكررة من جهة أخرى، كأمثال حسن محمد حسين (أستاذ الفيزياء النووية) الذي مات تحت تعذيب سرايا دفاع رفعت الأسد في بداية الثمانينات، واعتقال الدكتور عمار العمارين خريج جامعة برلين، وعشرات الأكاديميين الذين تم اعتقالهم أو تصفيتهم خلال سنوات الثورة.

يتساءل أحد الدكاترة السوريين الموجود في غازي عينتاب «كيف يمكن، سابقاً، لشخص مثل رفعت الأسد أن يتحكم بمصير الدراسات العليا؟! ثم لماذا تتكلف الدولة السورية بكل تلك المبالغ -ما يقارب 215 ألف دولار في الكليات العلمية و200 ألف دولار في الكليات النظرية- لإكمال دراسة دكتور واحد، لتعينه في مكان غالباً يُخالف اختصاصه، وبراتب لا يزيد عن 50 ألف ليرة؟».

إن استشعار أصحاب الكفاءات العلمية للخطر وهجرتهم كان رسالة واضحة من قبل نظام الأسد، وجّهتها لهم الأفرع الأمنية صراحة، وهذا ما قاله شهاب شهابي دكتور في قسم الإحصاء في جامعة حلب «بعد اعتقالي من قبل الأمن السياسي واستضافتي لـ 3أيام، وقبل إطلاق سراحي همس في أذني الضابط أتمنى أن لا نراك مرة أخرى لا هون ولا بالبلد»، لملم الدكتور أوراقه واتجه إلى تركيا مباشرة عبر المعبر النظامي السوري، لم يُمنع من السفر، وهو الآن مدرس في جامعة أنقره.

أما الدكتور صفوان عاشور (عميد كلية العلوم) فقد كانت الرسالة هذه المرة عبر اختطافه على يد مجهولين في حي الفرقان بحلب، جاء الاختطاف بعد منعه لشبيحة الأسد من اقتحام الكلية على خلفية مظاهرة في الكلية وقتها، وأطلقه الخاطفون مقابل 500 ألف ليرة سورية ليفهم الرسالة بوضوح، ويغادر إلى تركيا ليتابع مسيرته الأكاديمية في جامعات غازي عينتاب.

لم تنفع كل الوساطات الأمنية من مقربين للدكتور العمارين وعلى رأسهم مستشار وزير التعليم آنذاك في إطلاق سراحه ومعرفة مصيره، لتنقطع أخباره تماماً، وهناك ترجيحات من عائلته بأن نظام الأسد قد قام بتصفيته .

أم سميح - متداولة على الإنترنت

أم سميح.. المرأة التي أخجلتنا

مصطفى أبو شمس

(كباب هندي، فريكة مع الدجاج، كبسة باللحم، صفيحة، رز مع البازلاء...)، تلك اللائحة ليست قائمة طعام في أحد المطاعم الفاخرة، هي وببساطة قائمة طعام تقدمها الخالة أم سميح كما «يُطلق عليها أهالي الغوطة» في مطبخها الذي هُجّر قسراً مع مديرته إلى مدينة الأتارب في ريف حلب الغربي بعد سنوات من العمل الدؤوب داخل الغوطة المحاصرة.

منذ كانت أم سميح في الغوطة كرّست حياتها للعمل، وكعادة من يملكون روح الثورة والنضال لم تظهر على وسائل الإعلام إلّا نادراً، عملها كان يدلّ عليها ويُشكّل مادة دسمة لكثير من الكتاب الذين تحدّثوا عنها، حتى دون رؤيتها. ومنذ وصولها إلى الأتارب شمّرت عن ساعديها لتكمل ما بدأت به. هذه المرة دون أن تدلي بأي تصريح صحفي، رغم محاولتنا الوصول إليها، إلّا أن اللوجستي عبد الله شلو اعتذر بالنيابة عنها، فأم سميح رفضت الحديث مع كل من تواصل معها من وسائل الإعلام المرئية والمكتوبة، هي الآن كما في كل وقت تعمل، إذ لا وقت للكلام في حياتها.

هي أم سميح التي اختصرت مفهوم النضال حين رفضت ترشيحها لجائزة المرأة العربية، وأجابت «أنا بدي طعمي العالم...بدي أنقذهم من الموت...شو جائزة ما جائزة...أنا تبع جوائز...شو هي ثورة جوائز؟».

من لا يعرف أم سميح في الغوطة! كلّ الأطفال والعائلات والفقراء تعرف ذلك الوجه المبتسم للفلسطينية فاتن أبو فارس، والتي آمنت بالثورة السورية منذ بدايتها واعتُقلت على يد الأمن السوري ثلاث مرات، كما اعتقل الأمن في نيسان 2013 ابنها سميح بحرة طالب الطب البشري الذي انخرط في مساعدة الجرحى وتأمين الدواء والإسعاف خلال المظاهرات، وليبقى في ذاكرة أم سميح كحلم بأن يصبح «جراح أعصاب» يوماً.

أم سميح المتحدرة من يافا، والبالغة من العمر 54 سنة، تركت عملها في الترجمة (خريجة لغة إنجليزية) وذهبت إلى الغوطة الشرقية بعد اعتقالها الثالث، وأسست هناك بمساعدة صديقة من مدينة السويداء، تعرفت عليها في المعتقل، مطبخاً خيرياً يقدم الطعام لأهل مدينة حرستا المحاصرة.

منذ عام 2014 بدأت مشروعها الذي أطلقت عليه اسم «مطبخ أهالي السويداء مساندة لأهالي حرستا»، والذي تحوّل فيما بعد إلى «مؤسسة يد واحدة».

أم سميح تدير كل مفاصل هذا المشروع، من الطبخ والتصوير والتوثيق والتواصل، وهي السيدة الوحيدة بين كادر من الرجال الذين استطاعت أن تكسب ثقتهم واحترامهم، ليتطور عمل المؤسسة في توزيع الطعام على المئات من العائلات تجاوزت منطقة حرستا ووصلت إلى مناطق أخرى في الغوطة الشرقية. وحدها أم سميح كانت تقود «السوزوكي» بنفسها أو تزحف بين الركام والحواجز لإسعاد طفل بوجبة طعام أو هدية، وكفلت المؤسسة ما يقارب (160 يتيماً) إضافة إلى مشاريع صغيرة لبعض أهالي الغوطة، وبقيت أم سميح رغم كل الظروف حاملة رسالتها الأهم في مساعدة الأطفال الذين حرموا من طفولتهم وهم يحملون عبء الحصار، بعد أن حوّلتهم آلة الحرب الأسدية إلى أيتام، وفي أحسن الأحوال إلى رجال قبل أوانهم.

ودّعت أم سميح الغوطة في 2018/3/22 بـ«الصفيحة الأخيرة»، كما أطلقت عليها، وبصوت يغص بالبكاء، وقَسَم بالعودة.

لا تملك أم سميح بيتاً في الأتارب اليوم، هي تعيش متنقلة تتابع عملها الذي بدأته في الغوطة، أسست مطبخها من جديد بعد يومين فقط من وصولها، وقامت بمساعدة من مركز التنمية وبعض المتبرعين بشراء أدوات الطبخ وتوزيع الطعام الذي ألِف مذاقه أهل الغوطة لسنوات، إذ تقدم أكثر من 200 وجبة يومياً، بالإضافة إلى الخبز والخضار وكفالة الأيتام ودعم المشاريع الصغيرة.

في حضرة أم سميح كلنا نشعر بالخجل والفخر في آن معاً، هي الفلسطينية التي عبّرت بفطرية من تربّى على النضال، ووقفت مع المحاصرين والمهجّرين غير آبهة بالتعب والاعتقال والجوع، ربما أرادت أن تخبرنا أن القضية المركزية تكمن في ذلك الموقف الأخلاقي ضد الطغاة وظلمهم أينما وجدوا، وعلينا أن نكمل الطريق لا أن تلوك المرارة ويشلّنا العجز، وأن البقاء على قيد الحياة والسعي للتشبث بها هو انتصار للثورة/ الحياة.

حملات المُناصرة

نشوان الصالح

لم تنجح حملة مناصرة في تحقيق هدفها إلا في حال كان الهدف يتّسق مع خطط النظام، كما حصل في حلب، حين تحولت اعتصاماتنا ومظاهراتنا من فك الحصار إلى إخراج المدنيين من حلب الشرقية، وكما حصل في دير الزور، حين طالبنا بإسقاط المساعدات الغذائية على المدنيين المحاصرين في مناطق النظام حصاراً مزدوجاً من قبل النظام وتنظيم داعش.

ولحداثة عهدنا بحملات المناصرة كان الأجدر بنا أن نضبط تعريفها، لتمييزها عن غيرها من مفرزات المجتمع المدني، وهي «محاولة منظمة لتغيير سياسة أو ممارسة أو موقف ما، عبر تقديم الأدلة والحجج حتى يتسنى إقناع جهة ما بكيفية وسبب ووجوب حدوث التغيير. أو هي فعل مقصود وموجّه نحو تغيير السياسات أو المواقف أو البرامج في أي نوع من القرارات المطلوب تطويرها أو تغييرها أو التأثير على أساليبها أو حتى إلغائها»، كما يُعرّفها كُتيب صدر عنها، لذلك ربما تحتاج حملات المناصرة إلى أحزاب سياسية أو نقابات لم تكن موجودة في ضفة الثورة.

حلّ بدلاً منها منظمات المجتمع المدني، التي لم تكن على حالة من الودّ فيما بينها تجعلها قادرة على حشد مظاهرات كبيرة واعتصامات أمام سفارات الدول المؤثرة في القرار، بل كانت تشغلها تجاذبات سياسية غير معلنة، ومناطقية في كثير من الأوقات، فأصبح من الطبيعي أن ترى منظمات صمتت عن حلب وانتفضت لأجل الغوطة، ومنظمات صمتت عن دير الزور والرقة وانتفضت لأجل حلب والغوطة. علاوة على أن تلك المنظمات تفتقر، بشكل طبيعي لحداثة نشوئها، للعلاقات مع الأحزاب وقوى المجتمع المدني في دول الغرب، ما جعل تأثيرها محدوداً.

وهذا لا ينفي أننا، ورغم كل ما سبق، استطعنا في كثير من المواضع إيصال الفكرة لحكومات الدول الصانعة والمؤثرة على القرار، لكنهم آثروا اتّباع مصالح دولهم، حتى ولو كانت على دماء وأشلاء السوريين.

ليس جديداً القول إن غالبية حملاتنا كانت ارتجالية، بأقل قدر من التخطيط، ويعود ذلك في جزء منه إلى التبدل السريع في الظروف الميدانية وموازين القوى في سوريا. وفي الحملات التي خُطط لها بعناية، من تجهيز البوسترات والتقارير والصور والفيديوهات اللازمة، وجمع أكبر قدر ممكن من الشركاء (منظمات ومؤسسات إعلامية وأفراد مؤثرين) أُخرجت مظاهرات -خجولة مقارنةً بالحدث- في بعض المدن والعواصم الأوربية.

أحد مؤسسي حملة «طلعت ريحتكن» في لبنان، ومدرب المناصرة للجيل الأول من النشطاء السوريين عماد بزي، رأى خلال تلك الورشات أن ما نقوم به هو حملات إعلامية وليس حملات مناصرة، فالأخيرة تحتاج لهدف قابل للتطبيق وفق خطة تدعمها الحملة الإعلامية، لكننا كنا ننظر لهذا الكلام بعين الريبة، ونعتقد أنه يتحدث من واقع تجربته في بلد مستقر يتمتع بشيء من الحرية والديمقراطية مثل لبنان، وظل هذا الاعتقاد سائداً حتى تقدم النظام في حلب وقطَع نارياً طريق (الكاستيلو)، وحُوصرت الأحياء الشرقية، فاستُدعي عماد بزي للتخطيط من أجل فك الحصار عن حلب.

وبالفعل أُطلقت حملة «درب حلب»، وهدفت إلى جمع الأموال اللازمة لتدشيم طريق الكاستيلو، رافقها حملة إعلامية لتسليط الضوء وإثارة ضجة حول قضية حصار حلب. لم تنجح الحملة كمثيلاتها بسبب السيطرة السريعة للنظام مدعوماً بالمليشيات الطائفية والقوة الهمجية الروسية على الأوتوستراد، لكن عماد نجح في برهنة وجهة نظره في الاختبار الأول، وربما الوحيد له في سوريا.

في وادٍ آخر، ذاع في أوساط المنظمات الإعلامية والتنموية وحتى الإغاثية نوع مختلف من الحملات، ممول من المانحين، محدود بإطار زمني، ومرتبط بأهداف قابلة للقياس، كحملة للتوعية من الألغام، أو حملة طفل لا مقاتل. مثل هذه الحملات لها بداية ونهاية وخطة موضوعة يُمنح على أساسها التمويل، وتستهدف شرائح مجتمعية للحدّ من أخطار غير متعلقة بشكل مباشر بالصراع الدائر مع النظام أو التنظيمات الجهادية، وتنتهي الحملة بتاريخ محدّد أو ببلوغ الهدف المعلن، كتوعية مئة عائلة من الألغام في منطقة ما، أو ببلوغ عدد معين من التغريدات على مواقع التواصل الاجتماعي. هذه الحملات محسوبة أيضاً على المناصرة، وعلى ما يبدو أنها كذلك، وقد تأخذ الدور الأكبر بعد الانتهاء من الاقتتال بمعارك كبيرة، والوصول إلى حالة من التهدئة في سوريا المقسمة إلى مناطق نفوذ دولية وإقليمية.

نهايةً، تداولنا كثيراً جملة «نحتاج تطوير أدواتنا» في نقاشاتنا بعد وأثناء كل حملة مناصرة لم تأتِ بنتيجة، حتى صارت لازمة يقولها البعض للتهرب من المشاركة في حملات بات واضحاً عدم نجاعتها، في حين حاول البعض الآخر، كالدكتور محمد كتوب من منظمة (SAMS)، اجتراح بعض الحلول لتطوير الأدوات أثناء ندوة عُقدت ضمن الحملة الأخيرة لإنقاذ الغوطة الشرقية: «ينبغي الضغط على داعمي مؤسسات الأمم المتحدة، كألمانيا التي تدفع 10% من قيمة المساعدات الخاصة بسوريا، والتي يستحوذ على غالبيتها النظام، وهؤلاء -أي الدول المانحة- يستمعون لشركائهم من منظمات المجتمع المدني، وعلينا إخبارهم أين تذهب أموالهم».

لكن، وبعد أن ضاعت غالبية المناطق المحررة، وقضى مئات الآلاف من السوريين، وفشلت جميع حملاتنا، وأصبحت مراجعة الأدوات ضرورة، فإن أحداً منا لم يجب على السؤال الجوهري: كيف نطور تلك الأدوات؟

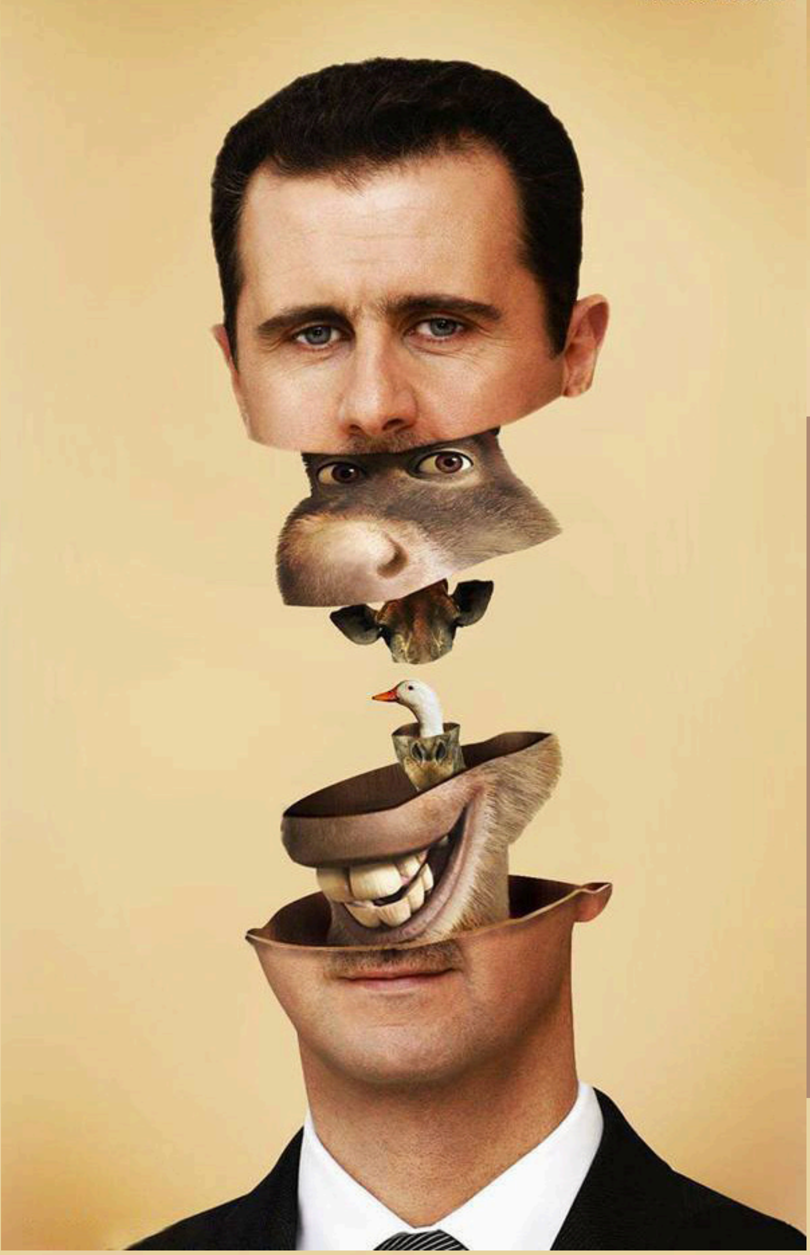
© Moustafa Jacoub

تحولات «الحيوان» ...
حكاية لجدارن الحكم المتداعية

توطئة اصطلاحية

سيكون من المُتعذّر والمملّ، وحتماً من المُمضّ، على القارئ أن يُجبَر على تحمّل تكرار اسم موضوع هذه المقالة مرّات ومرّات على مساحة صفحتين من «عين المدينة». ليس لانعدام أو خلل مُتعمد في الموضوعية، ولا في إطارٍ تحديد سياق غير حيادي قصدي، بل من أجل الالتزام بالراهن الوصفي له، فإنّ من الواجب التوضيح أنّ تعبيرات «الحيوان» و«السفّاح» و«الكيماوي» و«مُجرم الحرب» و«البراميلي» و«الوريث» ومشابهاتها واشتقاقاتها الواردة في المتن التالي؛ ستكون كلّها توصيفات لشخص واحد، سيرد اسمه هنا لمرة واحدة فقط، وهو بالتحديد، بشار حافظ علي سليمان الأسد رئيس النظام السوري.

سهيل نظام الدين

الفصل الأول: اختفاء قاسيون

في الرابعة أو الخامسة من عمره، فقدَ درّاجته، لا نعرف على وجه الدقة ما إذا كانت درّاجته حقّا أو أنّها منهوبة من أموال الشعب، لكنّه كان صغيراً ليُدرك أنّ أباه، وزير الدفاع آنذاك، كان يستعد لتعفيشة العمر التي ستدشّن حقبة الجحيم السورية الطويلة، وبالطبع لايعرف أنّ فقدان الدراجة يعود إلى أنّ طفولته هي خسارة جانبية في مسار بناء استبدالات لأدوار الأهمية التي طبعت حياته.

كلّ من يلعب بدرّاجته في دمشق سيرى قاسيون، هذ قانون يعود إلى أول دورة عجلة في المدينة العتيقة، غير أنّ الولد الأجعد الذي تلاشى اشقراره -غير المفهوم في الواقع- مع تقدمّه في السن، لم يرَ قاسيون كما يراه أقرانه في المدينة مذّاك. وبعد انقلاب والده على رفاقه الذين شاركوه في تخمير هزيمة حرب 1967 المذلّة، وتحويلها إلى ثقب أسود سياسي؛ ابتلع منظرّي وفاعلي الواجهة البعثية غير العلوية واحداً وراء آخر، ثم انقلب على نفسه؛ ليخرج منه والد من سيكون بعد أربعين سنة سفّاح سوريا الأكثر دموية منتصراً في حرب داخلية لم تقع، وعلى مؤامرة «رفاقية» لم تكن.

من القصر الجمهوري لايُمكن أن ترى قاسيون الشامي، هو هناك مجرّد جدار هائل يحيط بدمشق ويحدد طرق السيطرة عليها، والفرار منها، وقبل ذلك إمكانيات تطويقها وتدميرها.

وفي الحقيقة، لايوجَد أصدقاء هناك أيضاً، كلهم إمّا أبناء أعداء محتملين أو أبناء أكباش محرقة سيُلقي بهم الأب في أتون سعيه المحموم نحو الحكم الأبدي. ولا أصدقاء أيضاً حتى في مدرسة «اللاييك» الشهيرة في دمشق، والتي تَعرّب اسمها إلى «الحرّية» في سياق حملة تعريب؛ هي في علنها آخر بقايا سحل جثة البعثية العفلقية والناصرية في شوارع سوريا، وفي سِرّها مشروع بناء هويّة انعزالية تُبقي سوريا بلداً غير مشابه للزمن الراهن، وتوطيد صورة السفّاح الأب كـ«خليفة» مجدّد يضخ تقديسات إضافية لتاريخ حُذفت منه كلّ أخطائه، في منهج عسكرتاري شارك ضمناً في جعل «الجهادية» اللاحقة مجرد انتقال إلى عملانية عشق الماضي، بعد أن اصطدم التلامذة الذين درسوا ذات المنهج مع المجرم الذي اختار البراميل المتفجرة «منهجاً جهادياً» مناوئاً.

الفصل الثاني: لحية الأخ الأكبر

كيف لشخص هو ابن رجل حيكت صورته ليكون «كل شيء» في سوريا أن يكون موجوداً؟ هذا غير ممكن فعلاً. بعد سحق تمرّد الإخوان المسلمين في ثمانيات القرن العشرين، وعلى وقع حرب لبنان، بات الأب يعتقل كلّ سوريا. اختفت العائلة التي ظهرت في صورة ساذجة مع ريتشارد نيكسون بثياب ذات ذوق رديء.

وحده «الأب القائد» هو من يكون، وفي بُعدٍ آخر، هناك أبناء مراهقون تتوارى أسماؤهم وراء جدار يحجز معنى الدولة والنظام. الأب نفسه لم يعد في مسار تكريس سلطته الوحشية بحاجة إلى أسرته فاعتقلهم في الغياب، ولم يعد أحد في النظام أو في سوريا

يشعر بحاجة إلى ذكرهم مع انفلات سطوة «المعلمين» من أمثال علي دوبا وعلي حيدر وشفيق فياض ومحمد ناصيف، والأهم في حضرة العم «الوريث» رفعت، حتى انهار الجدار على الأب في مرضه ليُنقذ نفسه بحرب أهلية داخل النظام، انتهت بطرد رفعت وبروز الحاجة إلى وريث جديد.

لم يكن «البراميلي» يُمثل أيّ خيار بالطبع، بل إنّ أحداً لم يسمع عنه شيئاً إلّا في حكاية كاذبة عن مشكلة تتعلق بسيارته في حلب، وكان ذلك وسط خرافات وبطولات تُنسج حول أخيه الأكبر، الذي صارت لحيته المشذبة بدقة مفرطة نقيضاً لهزال شقيقه الأصغر في زيّه العسكري المثير للسخرية.

انهار الجدار مرة أخرى بضربة قدَر لم تكن في حسبان الطاغية الأب، مات باسل بحادث سيارة وأُعلن شهيداً «كامل الأوصاف»، وخرج «الكيماوي المضمر» من ظلّه لتُبنى له حكاية خاصة.

كان «المعلمون» مازالوا يمتلكون حضورهم القوي، وهم من رسَم خطوط وجوده، وبالرغم من خرافةٍ رعتها أجهزة المخابرات لحشره في إيجابيةٍ مُختلقة، تقول إنّه «مدنيّ وتربية الشام»، فقد استلزم الأمر تجربة واحدة لنكشف أثر «المعلمين» في شخصيته.

والمفارقة، أنّ خروجه من تحت لحية أخيه ودفعهِ نحو موقع «الوريث» الأكيد، استدعى تحطيم الجدار مرة ثالثة وإزاحة كلّ «المعلمين» الخطرين من طريقه، كانت ثمة قناعة راسخة لدى السوريين أنه هزيلٌ بما يكفي ليأكله رفاق

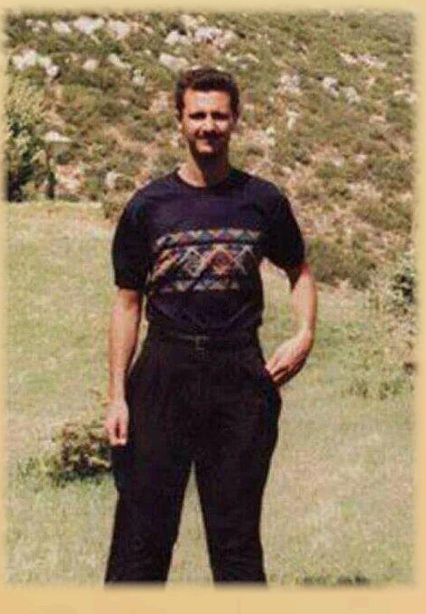

أبيه بسرعة البرق، إن تُرك وحيداً دون غطاء الأب السفّاح.

الفصل الثالث: دبوس أولبرايت

أعطى أحد مساعدي بيل كلينتون ورقة صغيرة للرئيس الأميركي، وبعد ساعات ليست بالكثيرة كانت مادلين أولبرايت في دمشق؛ لتُقدم العزاء بموت الأب، وتعقد اجتماعاً مغلقاً مع من ستسميه أميركا لاحقاً «الحيوان». يقال إنّ دمشق كانت قد أُحيطت بجدار من المدافع والصواريخ استعداداً لإحراقها إن حدث ما يُعكّر صفو انتقال سوريا إلى عهدة الرئيس الجديد.

حُجز «المعلمون» بعيداً، وظهر طاقم «الخلافة» الجدد، ومرّت العملية بسلاسة مذهلة، حتى اكتشف السوريون بعد أوّل جملة قالها في خطاب عامّ لثغته وبنوا عليها سخريتهم الأولى منه. وعِند أول اختبار لـ«مدنيته» المُلفقة استعاد ميكانيزمات أبيه بحرفيتها... كان الأب يحكم من قبره.. هذه خلاصة قراءة السوريين له منذ سنته الأولى.

مُحاولته المزرية والكاريكاتورية لبناء شخصية مستقلة كانت فشلاً إضافياً، ثرثرات خطابية مُملة، ومنطق تساؤلي يكشف عجزه عن الإجابة. غرقٌ عميق في رعاية الإرهاب عزّزه تحالفه مع كل القتلة المُمكنين بعد حرب العراق، واندماج كلّي صاغر في المشروع الإيراني الذي لاذ به بعد أبيه بديلاً لجدارنه المتهاوية، وانكفاء نحو «منهج» المعلمين بعد اغتيال الحريري والخروج المهين من لبنان.

يُمكن، على نحو خاص، ردّ هوسه السّقيم بالجدل إلى شخصية بهجت سليمان، وهو بحدّ ذاته مدعاة للنفور، ففي حين كلّف الرجل نفسه بتقديم «فلسفة» الطائفة وتحويلها إلى مسارات بلاغية ورطانات بلا طائل، فإن «المعلمين» السابقين والجسم التنفيذي في الآلة العسكرية للنظام، وعلى وجه التحديد الموالين لرفعت الأسد، يعتبرون بهجت سليمان مُجرّد «علاك». لكن شخصاً مثل الحيوان سيجد في هذا «العلاك» فلسفة كاملة لتبرير «الإبادة» في هيئته الظاهرة.

هناك محاولة أخرى غير ناجزة للافتراق عن إرثه الفقير، كشخص في ذاته وكفرد من عائلة تعتبرُ القتل هو ممر الأبهة السلطاني الوحيد. ويمكن بسهولة ملاحظة الفارق المُفعّل بين تعبيرات الذوق

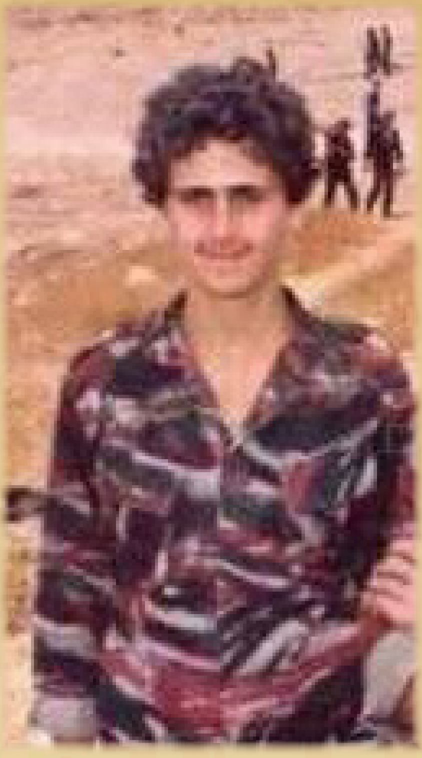

الرديء لصوره مع عائلة الأب، وبين البذخ الفجائعي لصورة زوجته الأنيقة في تضادّ مع بدائية حكمه وسياساته. والواقع أنّ هذه النقطة، تُثير أيضاً تضاداً نفسياً يُمكن لقائمة المشتريات الضخمة لـ «الحيوان» وزوجته «مدام جحيم»، كما تسميها الصّحف الغربية أن تفضحه، إذ تُشير فواتيرها إلى دُور أزياء عالمية فاخرة، في حين أنّ مشترياته الشخصية المُفرطة تتركز على ألعاب الفيديو، وتطبيقات إلكترونية لابد أنها تملأ فراغاً ما تركتهُ الدراجة المفقودة، أو أنها تُنفّس ضغطاً عصبياً متزايداً في داخله الضعيف -كأيّ طاغية في الواقع- وتُغنيه عن عادة تحطيم الزجاج التي يعرفها من عاشروه.

يمكن وصفه بـ «المعتوه» لكن هذا إجراء عمديّ، فهو ليس مختلاً بدرجة مُغايرة لبقية الطغاة، ومنهم أبيه. هو سفّاح بقراره، لص بقراره، ويحمل منذ تتلمذ على أيدي معلمي جحيم الثمانيات مشروع إبادةٍ جاهز للتنفيذ بالسلاح الكيماوي والبراميل وبالرضوخ للحُماة الإيرانيين والروس، كـ ردّ على أيّ تهديد لجدار حكمه الوحيد الذي لم يسقط، وهو أن قاسيون ليس سوى سور طائفي يُمكن منه قتل دمشق حين تحين ساعة الصفر.

دعوا عنكم حكاية الدراجة.. لم يركب يوماً سوى كرهه للحرية والحياة والكرامة، ثم قامت الثورة... وهذه حكاية تعرفونها.

على من يقع اللوم في إخفاق الثورة السورية؟

بشير نافع*
عن موقع The Middle East Eye
30 نيسان
ترجمة مأمون حلبي

لم تجد الحركة الثورية العربية حلفاءً دوليين أقوياء يدعمونها ويحمونها في لحظات التغيير الحاسمة.

الثورة السورية، التي ابتدأت وهي تطالب بالإصلاح، سرعان ما تحولت إلى المطالبة بإسقاط النظام. لكن لم يتمكن السوريون من إسقاط الأسد، سواءً عن طريق التعبئة الشعبية السلمية، أو عن طريق استخدام القوة. فمنذ عام 2011 تحولت الثورة السورية إلى حرب أهلية دموية ومسرح لنزاع إقليمي ودولي. ورغم الدمار المادي الهائل، ومقتل مئات الآلاف، وتحول الملايين إلى لاجئين، يستمر الأسد بتمثيل سوريا على المسرح الدولي وبإدارة شؤون ما تبقى من مؤسسات الدولة. وقد حقق النظام تقدماً مضطرداً في حربه على الفصائل المسلحة للثورة السورية بفضل الدعم الكبير من حلفائه الروس والإيرانيين.

تشتت المعارضة

بما أن الإخفاقات تدفع دائماً للبحث عن المسؤولين عنها، فقد عَمَّت النقاشات حول فشل الثورة. إحدى وجهات النظر ترى أن المعارضة السورية، العسكرية والسياسية، تتحمل المسؤولية الرئيسية عن هذا الفشل. فالمعارضة السياسية لم تستطع توحيد صفوفها، أو تقديم قيادة كاريزمية يمكن للناس الالتفاف حولها لكي تقنع العالم بجديتها بتمثيل الثورة والشعب. وبالإضافة إلى الهوة الكبيرة التي تفصل جناحي الثورة السياسي والعسكري، يوجد عدد كبير من الفصائل العسكرية.

عندما واجهت قوات المعارضة المسلحة ضرورة حماية وحدة الثورة امتنعت عن مواجهة القاعدة وداعش، ولم تستطع طردهما من المسرح السوري. ومعظم هذه الجماعات المسلحة بدت مهتمة بالحفاظ على وجود شكلي أكثر من اهتمامها بحماية مصالح الشعب والثورة. هذه المعارضة لم تكن مؤهلة في أي وقت لأن تقود الشعب، أو تستجيب للتحديات التي فرضها تحول سوريا إلى ميدان للحرب. حالما بدأ ميزان القوى يميل لصالح النظام أصبحت المعارضة عاجزة عن الصمود.

هذه الإدانة للمعارضة، رغم صحتها إلى حد كبير، تنطوي ضمناً على إدانة أخرى للشعب السوري. فمن هذا الشعب صعدت هذه المعارضة. هذا المنطق يقود إلى الاستنتاج أن الشعب السوري لم يكن جاهزاً للمواجهة مع نظام الأسد القمعي، وأن الطرف المنتصر أكثر أهلية لقيادة سوريا.

ما تغفله وجهة النظر هذه هو أن الثورة السورية لم تكن ظاهرة معزولة. فهي ظهرت ضمن سياق أوسع لديناميكية عربية ثورية للتغيير، ومن الخطأ قراءة ما حدث بمعزل عن ذلك. يُمكن القول إن هدف تغيير النظام السياسي لم يفشل في سوريا فقط، وإنما في جميع بلدان الربيع العربي. حصل الإخفاق في بلدان لم تشهد لجوءاً إلى السلاح، ولم تشهد ظهور جماعات إرهابية، وكان فيها قوى معارضة أكثر نضجاً. وحتى عندما نجحت الثورات بإسقاط الأنظمة، سرعان ما عادت الطبقات الحاكمة وأطلقت حركات مضادة للثورة واستعادت السلطة. تَحوّلَ ميزان القوى بسرعة ضد حركات الثورات العربية في كل دول الربيع العربي. هذا الانقلاب العكسي لم يحدث بسبب سذاجة المعارضة أو عدم كفاءتها، إنما بسبب تبلور ظروف ضاغطة عصفت بالمعارضة والشعب.

التعبئة المضادة

حقيقة أن حركة الثورة والتغيير شملت كل أرجاء العالم العربي، وليست فقط حركة سورية أو يمنية أو ليبية، هذه الحقيقة أطلقت تعبئة مضادة عبر العالم العربي. حالما أدركت قوى الثورة المضادة جاذبية وتأثير الديناميكية الثورية، انتقلت لبناء ائتلاف واسع النطاق. وحتى بدون اتفاق مسبق، تحركت الدول النافذة ذات الموارد السياسية والعسكرية والمالية الضخمة -كالسعودية والإمارات وإيران- لإلحاق الهزيمة بحركة التغيير والتحول الديمقراطي. اعتبر معسكر الثورة المضادة الثورات الديمقراطية تهديداً لامتيازاته وسلطاته ونفوذه داخل الشرق الأوسط. أيضاً لم تجد الثورات العربية حلفاء دوليين أقوياء يحمونها في لحظات التغيير الحاسمة. في عالم مترابط لم تنجح أي عملية تحول ديمقراطي بدون مساندة خارجية -إسبانيا، البرتغال، أوربا الشرقية. لكن المساندة الغربية للثورات العربية كانت بطيئة ومترددة وتحولت إلى لامبالاة أو عودة إلى سياسة «الشيطان الذي نعرفه...».

التنازل عن السلطة أو شنّ الحرب

كان ثمة شيء محدد حول سوريا. في كل حالات التغيير السياسي أثناء القرن الماضي كان على الطبقات الحاكمة، عندما تُواجه معارضة شعبية واسعة، أن تختار بين طريقين رئيسيتين: التنازل عن السلطة، أو شن حرب ضد الشعب. طغاةُ كالقذافي والأسد اختاروا المواجهة. تم إسقاط القذافي بتدخل أجنبي حاسم، في حين تَحصَّن الأسد خلف شكل دموي من الطائفية. حالما اكتشف عجزه عن تحقيق النصر ضد الثورة قام بطلب الدعم الطائفي الإقليمي. وعندما فشل مع حلفائه الإقليميين لم يتردد باللجوء للروس، ولو على حساب فقدانه للسيادة.

صحيحٌ أن الثورة العربية قد أخفقت في تحقيق أهدافها، لكن أسباب هذا الإخفاق كانت أكبر بكثير من نقائص حركة الشعب وقوى المعارضة، وما يتوجب علينا تذكره هو أن الإخفاق الحالي ليس نهاية الطريق. في مسار تاريخي بالغ التعقيد لعملية التحول لا يوجد شيء اسمه نهاية الطريق.

* مفكر فلسطيني مختص بالتاريخ المعاصر

علي حيدر الثالث من اليمين

علي حيدر.. اللواء البارّ بضيعته والضيع المجاورة

لا يزال اللواء علي عباس حيدر، القائد التاريخي للوحدات الخاصة في جيش حافظ الأسد، يحظى بتقدير خاص لدى أنصار النظام في جبال الساحل السوري، رغم مرور ربع قرن تقريباً على عزله إبّان تحضيرات الأسد الأب لتوريث ابنه بشار من بعده.

قبل أيام كتبت صفحة (هون ضيعتنا- بشيلي) في موقع فيسبوك «سيادة اللواء علي عباس حيدر: منذ كنا أطفالاً وقصص بطولاتك ترافقنا ومرسخه في عقولنا، نتناقلها عبر الآباء والأجداد الى أولادنا» وعدّدت بعض عطاءاته، فهو من أمَر بشقّ «أوتوستراد جبلة-بيت ياشوط-الغاب»، وهو من «أنار قرانا بالكهرباء وشبكة الهاتف»، وهو «من ساعد الكثيرين... وله الفضل عليهم حتى الممات»، والأهم من كل هذا أنه «أشعل النار تحت أقدام الإخوان المسلمين في حماة والمحافظات»، وأكمل المعلّقون في تعداد عطاءات اللواء الذي كان له «الدور الرائد في افتتاح جامعة تشرين»، وكان له الفضل بقبول مئات الشبان في الكليات العسكرية كضباط، ومئات الشابات في معاهد الصف الخاص كمعلمات، ومئات في وظائف القطاع العام. ومهما قيل من كلمات فإنها «لن تعطيك 1% من حقك وفضلك علينا وعلى قرانا» وفق ما عبرت (هون ضيعتنا -بشيلي) عن امتنانها للواء الذي اقترن اسمه بارتكاب سلسلة مذابح بين سورية ولبنان، و«آه على الزمن الجميل» حين كانت تُسحق المدن المتمردة، بصمت وبسرعة قياسية دون شفقة أو تردد.

في قصره الفخم الذي بناه جنود الوحدات الخاصة في ثمانينيات القرن الماضي بضيعته حلة عاره في ريف جبلة، يمضي اللواء الطاعن في السن في تقاعده المريح، ولا يزال قادراً على تأدية واجبات العزاء بالقتلى، وعلى استقبال زواره من رجال دين وشعراء ريفيين وضباط أدنى رتبة.

ينتمي اللواء إلى عشيرة الحدادين العلوية، وتقول رواية أن نسبه ينتهي إلى منتجب الدين العاني أحد أهم دعاة الطائفة، وبهذا النسب، ثم بتحدر شيوخ مشهورين منها، أحرزت عائلة اللواء حيدر وجاهة اجتماعية خاصة، دخلت بلا شك في حسابات حافظ الأسد خلال صراعه مع خصمه وابن طائفته اللدود صلاح جديد.

لا يُعرف التاريخ الدقيق الذي التقى فيه الأسد بحيدر، لكن المؤكد أن علاقة متينة نشأت بين الرجلين قبل انقلاب البعث في العام 1963، وترسخت بعدها على مراحل، في هزيمة حزيران ثم مواجهة الإخوان المسلمين ثم إحباط محاولات رفعت الانقلاب على أخيه. وفي جميعها كان حيدر تابعاً وفياً وقوياً ما أتاح له بناء إقطاعية شبه مستقلة في مملكة الأسد الذي اعتاد ترك هوامش واسعة لرجال حلقته الأولى، مع حفاظه على قدرة إزاحتهم متى شاء.

من فضائل اللواء المجهولة، مساهماته في حقول الأدب والفلسفة، بتكليف الإدارة السياسية في الجيش -يساري الهوى والعقيدة- بطباعة ونشر كتابين لعمّه شيخ الدين البارز أحمد محمد حيدر، الأول ديوان شعر بعنوان (النغم القدسي) في العام 1972، والثاني مؤلَّف غنوصي بعنوان (ما بعد القمر) في العام 1984.

الجسر الروماني بريف عفرين

بلدة دير صوان بريف عفرين عقب سيطرة الجيش الحر عليها

عدسة اسماعيل عبدالرحمن - خاص عين المدينة